هذا هو الإسلام

التسامح في الإسلام

(المبدأ والتطبيق)

الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

التسامح في الإسلام

(المبدأ والتطبيق)

« يـا بُنَيَّ كـذب مَنْ قـال إنَّ الشَّرَّ بـالشَّرِّ يُطفأ ، فإن كان صادقاً فليوقـد نـارَيْن ، ويـنظر هـل تُطفِئ إحـداهُما الأُخرى ، وإنَّما يُطفئ الخيرُ الشَّرَّ كما يُطفئ المـاءُ النَّار »

[لقمان الحكيم]

التسامح في الإسلام

(المبدأ والتطبيق)

الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الكتاب ٨٩٨
الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م

سورية ـ دمشق ـ برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد ـ ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر ـ س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧ ، ٢١١١٦٦ ـ تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق

تمهيد

حوار مع مستشرقة فرنسيَّة :

في الشَّهر السَّادس من سنة ١٩٨٩ م ، اتَّصل بي زميل لي ، يعمل موجِّهاً أوَّلاً لمادَّة التَّاريخ في وزارة التَّربية ، وسألني : أريد أن آخذ من وقتك ساعة أو ساعتَيْن ، فمتى تستقبلني ؟

قلت لزميلي مجيباً : متى شئت في أُمسية الغد .

قال : سأُحضر معي مستشرقة فرنسيَّة حدَّثتها اليوم عنك .

قلت : أهلاً وسهلاً بكما ، ولكن ما الموضوع الَّذي سيُطْرَح ، كي أحتاط له ؟

قال : قرأتْ هذه المستشرقة كتاباً لڤيكتور هوغو ، عنوانه : (أساطير القرون) ، وهو يضمُّ عشرات القصائد ، والَّتي منها قصائد

بعنوان : محمَّد ﷺ والأرزُ[1] ، ادَّعى ڤيكتور هوغو في القصيدة الأخيرة منها ، أن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، والَّذي لقَّبه هوغو (شيخ الإسلام) ، وشبَّهه بالقدِّيس بولص[2] ، هدم أربعة آلاف كنيسة خلال عمليَّات الفتح في بلاد الشَّام ، وبنى من بقايا أحجارها وحطامها ألفاً وأربع مئة مسجدٍ .

قلت لزميلي : أهلاً وسهلاً بكما ، أنا بانتظاركما .

انتهت المكالمة الهاتفيَّة ، بعد تحديد ساعة اللِّقاء ، فرحت أُفكِّر مليّاً ، وأتساءل : هل يستَحِقُّ كلام ڤيكتور هوغو هذا ، عناء السَّفر من فرنسة إلى سوريَّة ؟

وأيُّ بناء جديد سينشئه الاستشراق معتمداً على ادِّعاءات هوغو ؟

وقلت في نفسي أيضاً : أَلَمْ نسمع صيحات تقول بنهاية عصر الاستشراق ؟

أَلَمْ يعلن مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرون سنة ١٩٧٥ ، أنَّ المؤتمر

---

(١) الأَرْزَةُ : شجرة الصَّنوبر ، والجمع أَرْزٌ ، [اللِّسان : أرز] ، وهو شجر معروف في بلاد الشَّام تشتهر به لبنان خاصَّة ، حتَّى جُعِلَ شعاراً لها على عَلَمها .

(٢) بولص : اسمه الأوَّل شاول ، يقال تنصَّر على طريق دمشق ، وبدأ التَّبشير في مدن آسية الصُّغرى ، قطع رأسه في روما سنة ٧٦ م ، يلقِّبونه (رسول الأمم) .

القادم سيعقد باسم (مؤتمر العلوم الإنسانيَّة) ؟ وقالوا : لقد خُتِمَت جولة ضخمة بدأت بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، وامتدَّت على مدى مئة وخمسين عاماً ، وقالت (اللّيموند) الفرنسيَّة : إنَّ هذا التَّحوُّل يُعَدُّ (موت الاستشراق) ، وقال جاك بيرك : « انتهى زمن الاستشراق » ، في الوقت الَّذي كرَّم العدوّ الصّهيوني في الأرض المحتلَّة المستشرق برنارد لويس ، الَّذي هاجم الأُمَّة العربيَّة ووصفها بالعنصريَّة !! وحيث يوجد اليوم جناح ضخم من الاستشراق الصّهيوني قوامه رودنسون وبرنارد لويس ، يركِّز كلَّ اهتمامه بقضايا فلسطين وإبراهيم وإسماعيل والقدس واليهود .. أليس هذا كله يجعلنا في حذر دائم ممَّا يكتبه المستشرقون ، وما يُكْتَبُ عنهم ، ونحن إزاء تحوُّل الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانيَّة ، نحسُّ بأنَّ الخطر أصبح أشدَّ قوَّةً وعمقاً ، وأنَّ الاستشراق يغيِّر جلده ليدخل في مرحلة جديدة أكثر خطراً[1] ؟ !

سيبقى الإسلام هاجسهم اليوم وغداً ، إنَّه العقيدة البديلة للفراغ الرُّوحي الَّذي يعيشونه ، بعد أن نبذت العقول جانباً الأسرار والخرافات والإله المصلوب ، الَّذي لم يحم نفسه وقتلها صلباً ليفتدي خطايا البشر ، وهو الَّذي يملك العفو ـ إن كان إلهاً ـ دون صلب أو فداء .

---

(١) (الهلال) : عدد كانون الثَّاني (يناير) ، ١٩٧٦ م ، صفحة ٦٧ ، (التُّراث الإسلامي والمستشرقون) للأُستاذ أنور الجندي .

مَرَّت عشرات الفكَر في خاطري ، كان آخرها : أما آن لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نترك موقف الدّفاع الَّذي نقفه لردّ شبهات الاستشراق وافتراءاته ، ونقف موقف الطَّارح في ساحِ البحث عيوبهم ومخازيهم ؟

حُبّاً للحقيقة من ناحية .

وإشغالاً لهم بترقيع ما عندهم وترميه من ناحية ثانية .

وإفهاماً لهم أنَّنا نعلم ما عندهم من عقائد وأفكار متهافتة من ناحية ثالثة ، عقائد لن تتلاءم مع حقائق العلم الحديث ، مهما حرصوا على المواربة في تفسيرها ، وهذه هي أُوربَّة تتخلَّى عن دينها إلى العلمانيَّة ، والكنائس تباع في المزادات ، ومع ذلك فالتَّبشير قائم خارجها على قدم وساق ، في إفريقية ، وجنوب شرقي آسية !؟!

☆ ☆ ☆

وفي الموعد المحدَّد ، زارني الزَّميل ومعه المستشرقة الفرنسيَّة ، وبعد كلمات مقتضبة جدّاً في المجاملة والتَّرحيب ، دخلنا صلبَ الموضوع ، وراحت المستشرقة بعربيَّة فصيحة تقرِّر : إنَّ عمر بن الخطَّاب (شيخ الإسلام) ، و (بولص المسلمين) أمر ـ أثناء فترة خلافته ـ بهدم أربعة آلاف كنيسة ، وبنى ألفاً وأربع مئة مسجدٍ ، فأين تسامح الإسلام ؟

قلت على التَّوّ مجيباً : وما مصدر هذه المعلومات التَّاريخيَّة ، الَّتي لم أقرأ عنها من قبل ؟ وأنا ـ كما هو معروف معلوم ـ مختصٌّ في تاريخ صدر الإسلام ، وأُدرّسه في أكثر من ثلاث جامعات ؟

قالت : مصدرها كتاب (أساطير القرون) لڤيكتور هوغو في قصيدة الأَرْز .

قلت : ڤيكتور هوغو ، شاعر وكاتب فرنسي ، ولد سنة ١٨٠٢ ، وتوفّي سنة ١٨٨٥ م ، امتازت مؤلَّفاتُه بقوَّة المخيِّلة ، وتنوُّع الألفاظ ، وغنى الوصف ، ولكنه ليس باحثاً موثوقاً ، ولا مؤرِّخاً معاصراً لعهد الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة ، الَّتي تمَّت في النِّصف الأوَّل من القَرْن السَّابع الميلادي .

قالت : طبعاً ، هذا صحيح .

قلت : شاعر امتاز « بقوَّة المخيِّلة ، وتنوُّع الألفاظ ، وغنى الوصف » ، وليس باحثاً مدقِّقاً ، أو مؤرِّخاً موثوقاً .. كيف تعتمدين أقواله وطروحاته ؟ فساد صمتٌ ، مع نظرات استغراب ، فخرقْتُ جدار الصَّمت بكلماتٍ متقطِّعة ، قائلة :

إنَّها موضوع رسالتي .. أُطروحتي .. لنيل درجة الدُّكتوراه .

قلت : إنَّكِ تجيدين العربيَّة نطقاً ، ولعلَّها كتابة وقراءة أيضاً .

قالت : بالطَّبع ، أنا أقرأ العربيَّة وأكتبها بشكل ممتاز .

قلت : فلِمَ لم تعودي إلى المصادر العربيَّة ، لدراسة هذه الفترة الَّتي عاشها عمر بن الخطَّاب ، ولتنهلي من معينها ، بدل العودة إلى ڤيكتور هوغو الَّذي عاش بعد عمر بأكثر من اثني عشر قرناً ؟

قالت : ولكنه ڤيكتور هوغو ؟!!

قلت : نعم ، إنَّه هوغو الشَّاعر الفرنسي الكبير ، والكاتب القصصي العظيم فقط ليس إلاَّ ، أمَّا هوغو المؤرّخ الثَّبت ، وهوغو الباحث المنصف فلا .

ودار حديث على مدى ساعتين وأكثر ، تكلَّمت خلالها وهي تسمع وتكتب ، وتتناول كتاباً من يدي ، وتدع آخر ، لتكتب عنوانه ، واسم مؤلِّفه ، وطبعته وسنتها .. ومما قلته لها :

أسمعت بما يعرف في علم النَّفس (بالإسقاط) ، الَّذي هو بمدلوله الأساس يعني ميل الفرد إلى أن ينسب عيوبَهُ وأخطاءه ورغباته المستكرهة المكبوتة إلى غيره من النَّاس والأشياء ؟

فالبخيل لا يفطن إلى أنَّه بخيل وينسب البخل إلى غيره .

وكذلك الأناني والكذّاب والمغرور والكسول ...

قالت : وما علاقة (الإسقاط) مع ما قاله ڤيكتور هوغو ؟

قلت : هناك مثل عربي عظيم يقول : « رمتني بدائها وانسلّت » اسمعي :

أوّلاً :

منذ الفترة المكّيّة ـ قبل الهجرة النّبويّة الشّريفة ـ كان شعور المسلم مع أخيه المسيحي ، لأنّه من أهل الكتاب ، وسُجّل ذلك في القرآن الكريم :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ☆ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ☆ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ☆ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، [الرُّوم ٣٠/٢ـ٥] .

انتصر الفُرْسُ على الرُّوم ، ففرح مشركو مكّة بذلك ، وأظهروا شماتتهم بالمسلمين الّذين كانوا يقولون بوحدة المنبع والجوهر ، الّتي تجمع بينهم وبين الكتابيين الّذين منهم الرُّوم النّصارى ، وإنّ هذا الموقف شقّ على المسلمين وأحزنهم ، فبشّرهم الله سبحانه وتعالى بهذه الآيات وطمأنهم .

حتَّى إنَّ هناك روايات عديدة ، في صيغ مختلفة عن تَشَادٍّ بين المسلمين والكُفَّار ، ومراهنة بينهم على صدق ما بشَّرت الآيات من غلبة الرُّوم بعد انغلابهم ، منها ما كان بين أبي بكر الصِّدِّيق ، وأُميَّة بن خلف[1] .

ثانياً :

معاهدات النَّبيِّ ﷺ في الفترة المدنيَّة ، سأذكر مقتطفات منها ، لتلمسي تسامح الإسلام مع أتباع الدِّيانتَيْن اليهوديَّة والمسيحيَّة :

ففي المدينة المنوَّرة وادع ﷺ عربها الَّذين تَهَوَّدوا وعاهدهم[2] ، وكفل لهم التَّمتُّع بما للمسلمين من حقوق ما وفُّوا ، وبَعُدوا عن خبث الطَّويَّة ، والغدر والخيانة .

وكان ﷺ محقّاً كل الحقّ في إجلاء اليهود من بني قينقاع بعد غزوة بدر الكبرى لمؤامرتهم وتطاولهم وغرورهم ، فمن أقوالهم : « يا محمد لا يغرنَّك أنَّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصَبْتَ منهم فرصة » ، يقول ابن الأثير : فكانوا أوَّل يهود نقضوا ما بينهم وبينه[3] .

---

(١) التَّفسير الحديث ، محمَّد عزَّة دروزة : ٢٨٤/٦

(٢) ابن هشام : ١٠٦/٢ و ١٠٧ و ١٠٨

(٣) الكامل في التَّاريخ : ٩٦/٢ ، عيون الأثر : ٢٩٥/١

والنَّبيُّ ﷺ مُحِقٌّ كلَّ الحقِّ في إجـلاء يهـود بني النَّضير بعـد غـزوة أُحُد[1] ، لأنَّهم تآمروا مع قريش ضدَّ المسلمين .

والنَّبيُّ ﷺ مُحِقٌّ كلَّ الحـقِّ في حكمـه على بني قريظـة بعـد غـزوة الأحزاب (الخنـدق)[2] ، لنكثهم عهودهم معـه ، وهـو في أشـدِّ سـاعـات الْحَرَج ، بعد أن ساعدوا قريشاً وحرَّضوها ضدَّ رسول الله ﷺ .

ومع ذلـك كان الرَّسول الكريم يرفـق بـاليهـود إذا نقضـوا عهـده ، أو حاربهم فـانتصر عليهم ، فكان لا يعـاقبهم إلاَّ بمقـدار مـا يكف أيـديهم عنه ، وكان يحكِّم فيهم من يختارونه بأنفسهم[3] .

وفي غزوة خَيْبَر[4] ، وجد المسلمون صحائف متعـدِّدة من التَّوراة ، فجاء اليهود يطلبونها ، فأمر ﷺ بدفعهـا إليهم ، وهـذا التَّسـامح سبقـه تسامح آخر عندما ترك صحائف اليهود ، ولم يتعرَّض لها بسوء ، مع شدَّة عـداوة اليهود للمسلمين ، فقـد سمح لبني النَّضير بعـد غزوة أُحُـد ، بحمل صحفهم عند جلائهم عن المدينة المنوَّرة ، مما جعل (ولفنسون) يقول :

---

(1) شوَّال ٣ هـ / كانون الثَّاني (يناير) ٦٢٥ م .

(2) شوَّال ٥ هـ / شباط (فبراير) ٦٢٧ م .

(3) تاريخ الإسلام : ١٣٢/١

(4) المحرَّم ٧ هـ / آب (أغسطس) ٦٢٨ م .

« لم يتعرّض - النّبي ﷺ - بسوء لصحفهم المقدسة ، ويذكرون إزاء ذلك ما فعله الرُّومان حيث تغلّبوا على أُورشليم وفتحوها سنة ٧٠ م ، إذ أحرقوا الكتب المقدَّسة ، وداسوها بأرجلهم ، وما فعله المتعصّبون من النَّصارى في حروب اليهود في الأندلس ، حيث أحرقوا أيضاً صحف التَّوراة ، هذا هو البَوْن الشَّاسع بين الفاتحين ممَّن ذكرناهم ، وبين رسول الإسلام »[1] .

والتَّاريخ خير شاهد لوفاء رسول الله ﷺ لعهوده ، حتَّى دفع ديات من قُتِلَ منهم خطأ ، وعفوه عن كلِّ معتدٍ مسيءٍ منهم جاءه تائباً ، وأنَّه ﷺ كان يُشَيِّع جنازاتهم ، ويحضر ولائمهم ، ويعود مرضاهم ، ويقترض منهم حتَّى توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند بعض اليهود في المدينة ، وكان ﷺ يفعل ذلك إرشاداً وتعليماً للمسلمين ، مع أنَّه كان في الصَّحابة من يقرض رسول الله ﷺ ، بل ويؤثره على نفسه .

ثالثاً :

وأبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وقف يوصي جيش أُسامة بن زيد قائلاً :

« ياأيُّها النَّاس ، قفوا أُوصيكم بعشر ، فاحفظوها عنِّي :

---

(١) تاريخ اليهود ببلاد العرب ، ص ١٧٠

١ ـ لا تَخُونوا ولا تُغِلُّوا[1] .

٢ ـ ولا تغدروا ولا تمثِّلوا .

٣ ـ ولا تقتُلُوا طفلاً صغيراً .

٤ ـ ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة .

٥ ـ ولا تعقروا نخلاً[2] ولا تحرقوه .

٦ ـ ولا تقطعوا شجرةً مثمرة .

٧ ـ ولا تذبحوا شاةً ولا بعيراً إلاَّ لمأْكلة[3]

٨ ـ وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

٩ ـ وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطَّعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء ، فاذكروا اسم الله عليها .

١٠ ـ وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها

---

(١) الغلُّ : الغِشُّ أو الضِّغْن والحِقْد ، والإغلال : الخيانة والسّرقة الخفيّة ، [اللّسان : غلل] .

(٢) عقر النَّخلة : قطع رأسها ، [اللّسان : عقر] .

(٣) ممَّا سبق يتوضَّح أنَّ الإسلام يحرِّم استخدام أسلحة الدَّمار كالقنابل المحرقة الَّتي تقذف على الآمنين دون تمييز بين محاربين ومستضعفين مدنيِّين ، وفي القرن العشرين ، كيف تنتشر المبادئ ؟ بالإقناع والحجَّة ، أمْ بالقنابل والمدافع ؟

مثل العصائب فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله »[1] .

رابعاً :

أمَّا عمر بن الخطَّاب ، الَّذي يتَّهمه فيكتور هوغو بأنَّه هدم أربعة آلاف كنيسة ، فوصاياه لجنده مشهورة ، منها :

كتب رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص[2] : « ونَحِّ منازلهم وجنودك عن قُرَى أهل الصُّلح والذِّمَّة ، فلا يدخلها من أصحابك إلاَّ من تثق بدينه ، ولا يرزأ[3] أحداً من أهلها شيئاً ، فإنَّ لهم حرمة وذمَّة ، ابتُليتم بالوفاء بها ، وابتُلوا بالصَّبر عليها ، فما صبروا لكم وفُّوا لهم »[4] .

ومرَّ رضي الله عنه في أرض الشَّام بقوم مجذومين[5] من النَّصارى ، فأمر أن يعطَوْا من بيت مال المسلمين ، وأن يجري عليهم القوت بانتظام[6] .

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ٢٢٧/٢ ، والطَّبري : ٢٢٦/٣

(٢) سعد بن أبي وقَّاص ، صحابي أمير ، فاتح العراق ومدائن كسرى ، [الأعلام ٨٧/٣] .

(٣) رزأه مالَهُ ورَزِئه يرْزَؤهُ فيه رُزْءاً : أصاب من ماله شيئاً ، [اللّسان : رزأ] .

(٤) نهاية الأرب : ١٦٩/٦

(٥) جذم : قطع ، والجُذام من الدّاء ، معروف لتجذُّم الأصابع وتقطُّعها .. [اللّسان : جذم] .

(٦) البلاذري (فتوح البلدان) ، ص : ١٣٥

ولمّا طُعِنَ رضي الله عنه ، مات وهو يوصي بأهل الذِّمَّة « فإنَّهم ذمَّة نبيِّكم » ، وهذه ليست وصيّة للمعاملة بالْحُسْنَى ، بل الرِّفق ، لأنَّ الإسلام لم يعرف في حياته شعار : « وَيْلٌ للمغلوب من الغالب » .

أمّا (العهدة العمريّة) فتكفيه وحدها لردّ افتراء هوغو ، علماً أنّه رضي الله عنه لَمّا حان وقت الصَّلاة ، لم يقبل أن يصلّي داخل الكنيسة ، حفاظاً عليها ، وضماناً لبقائها ، ولكي لا يقال : هنا صلّى عمر ، وسنجعل مكان صلاته مسجداً ، فخرج رضي الله عنه ، ليصلّي بجوارها ، حيث بني مسجد عمر ، الّذي تعالت مئذنته وسمقت عالية ، بجوار برج الكنيسة .

وإليكِ نصّ العهدة العمريّة :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليَاء[1] من الأمان :

أعطاهُم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها ، أنّه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهْدَم ، ولا ينتقص

(١) إيليَاء : اسم مدينة بيت المقدس ، ومعناه : بيت الله ، [معجم البلدان ٢٩٣/١] .

منهـا ولا مِنْ حيِّـزهـا ، ولا من صليبهم ، ولا من شيءٍ من أمـوالهم ، ولا يُكْرَهون على دينهم ، ولا يضارَّ أحد منهم ..

وعلى ما في هذا الكتاب عهـد الله وذمَّـة رسولـه ، وذمَّـة الخلفـاء ، وذمَّة المؤمنين .

شهـد على ذلـك خـالـد بن الـوليـد ، وعمرو بن العـاص ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، ومعاويـة بن أبي سفيـان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة »[1].

فـأخـذت المستشرقـة من يـدي الجزء الثّـالث من تـاريـخ الطَّبري (تاريخ الرُّسل والملوك) ، وعلامـات الـدَّهشـة مرسومـة على محيَّـاهـا ، وراحت تنقل (العهدة العمريَّـة) بصمت رهيب ، ولَمَّـا فرغت قـالت : هذا النَّصُّ يكفيني .

فقلت : « أفلح الأعرابي إن صَدَق » . فابتسمت ، وهزَّت رأسهـا ، وكأنَّها تقول : صادقةٌ ، صادقة ، ثمَّ قـالت : أتريـد أن تضيف شيئـاً آخر للاستزادة والتَّوثيق ؟

قلت لها ليرسو في قلبهـا اليقين : وعلى منوال (العهـدة العمريَّـة)

---

(١) الطَّبري ٣/٦٠٩ ، واليعقوبي ٢/١٦٧

وقّع أبو عبيدة بن الْجَرّاح[1] معاهدة مع أهل دمشق ، ووقّع عمرو بن العاص معاهدة مع أهل مصر .

وإليكِ أوّلاً معاهدة دمشق لأبي عبيدة :

لقد صالح أبو عبيدة أهل الشّام ، واشترط عليهم حين دخلها :

« على أن تُترَك كنائسهم وبِيَعُهم »[2] .

وإليكِ ثانياً معاهدة عمرو مع أهل مصر :

هذا ما أعطى عمرو بن العاص[3] أهلَ مصر من الأمان ، على أنفسهم ومِلّتهم وكنائسهم وصُلُبهم وبَرِّهم وبحرهم ..[4] .

قالت : ولكن أخذ المسلمون جزيةً من غير المسلم ؟

قلت : صحيح ، ولكنها ليست لوناً من ألوان العقاب ، وإنّما هي

---

(١) أبو عبيدة عامر بن الجرّاح : أمير قائد ، فاتح الدّيار الشّاميّة ، أحد العشرة المبشّرين بالجنّة ، كان لقبه (أمين الأُمّة) توفي بطاعون عمْواس ودفن في غور بيسان ، [الأعلام ٢٥٢/٣] .

(٢) كتاب الْخَرَاج لأبي يوسف القاضي ، ص ٨٠

(٣) عمرو بن العاص : فاتح مصر ، وأحد دهاة العرب وأُولي الرّأي والحزم والمكيدة فيهم ، توفّي سنة ٦٦٤ م .

(٤) الطّبري : ١٠٩/٤ ، وصبح الأعشى للقلقشندي .

مقابل الحماية الَّتي كفلها لهم المسلمون ، « لأنَّ قبول الجزية تثبت معه عصمة الأنفس والأموال »[1] ، وقال عمر بن الخطَّاب لأبي عبيدة رضي الله عنهما ، وبكلّ صراحة ووضوح : « فإذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم ، ولا سبيل »[2] .

فالحقوق العامَّة لأهل الذِّمَّة :

١ ـ حفظ النَّفس : فدم الذِّمِّي كدم المسلم .

٢ ـ والقانون الجنائي سواء للمسلم والذِّمِّي ، فالَّذي يعاقب به المسلم على ما يأتي من الجرائم يعاقب به الذِّمِّي أيضاً[3] .

٣ ـ وفي القانون المدني : المسلم والذِّمِّي سواء ، وللذِّمِّيِّين أن يربُّوا الخنازير ويأكلوها ويبيعوها ، ولهم أن يصنعوا الخمر ويشربوها ويبيعوها ، وإن أتلف مسلم خمر الذِّمِّي أو خنزيره ، كان عليه غرمه .

وجاء في الدُّر المختار ٢٧٣/٣ : « ويضمن المسلم قيمة خمره ـ خمر الذِّمِّي ـ وخنزيره إذا أتلفه » .

---

(١) بدائع الصَّنائع : ١١١/٧

(٢) كتاب الخَرَاج ، ص : ٨٣

(٣) إلاَّ الخمر « ولا شكَّ فإنَّ أهل الذِّمَّة قد استثنوا من حدّها في الإسلام » ، [كتاب الخَرَاج ، ص : ٢٠٨ ـ ٢٠٩] .

٤ ـ حفظ الأعراض : لا يجوز إيذاء الذِّمّي لا باليد ، ولا باللِّسان ، ولا شتمه ، ولا ضربه ، ولا غيبته ، « ويجب كف الأذى عنه ، وتحريم غيبته كالمسلم »[١] .

٥ ـ ثبوت الذِّمّة : إنَّ عقد الذِّمّة يلزم المسلمين لزوماً أبديّاً ، أي أنَّه ليس للمسلمين أن ينقضوه بعد عقده ، ولكن أهل الذِّمّة لهم الخيار أن يلتزموه ما شاؤوا ، وينقضوه متى شاؤوا .

والذِّمّي مهما ارتكب من كبيرة لا ينقض بذلك عقده ، حتّى ولا ينقض عقده كبائر الأفعال كالامتناع عن الجزية وقتل مسلم .. كلّ هذه الأفعال يعاقب عليها الذِّمّي في القانون كأحد من الْجُنَاة ، ولا يُعَدُّ ذلك خروجاً على الدَّولة ، ولا يُخْرِج من عقد الذِّمّة .

على أنَّ هناك أمْرَيْن يُخْرِجَان ولا شكَّ من هذا العقد ، أوَّلهما أن يغادر الذِّمّي دار الإسلام إلى دار الحرب ، والآخر أن يَخْرُج على الدَّولة الإسلامية علناً ، ويبعث الفتنة في البلاد[٢] .

٦ ـ الأمور الشَّخصيَّة : يقضي بها الذِّميُّون بحسب قانونهم الشَّخصي .

---

(١) الدُّر المختار : ٢٧٣/٣ ـ ٢٧٤

(٢) البدائع : ١١٣/٧ ، وفتح القدير : ٣٨١/٤ ـ ٣٨٢

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الإمـام الحسن البصري[1] مستفتيـاً : ما بال الخلفاء الرّاشدين تركوا أهل الذّمّة وما هم عليه من نكاح المحـارم ، واقتناء الخمور والخنـازير ؟ فـأجـاب الحسن البصري : إنَّما بـذلوا الجزيـة ليتركوا وما يعتقدون ، وإنَّما أنت مُتّبع لا مبتدع ، والسَّلام[2]ا.

أمّـا إذا طلب الفريقـان بـأنفسهما أن تقضي المحكمـة بينهما بشريعـة الإسـلام فتفعـل المحكمـة وتنفّـذ عليهما حكم الشّرع ، وأمّـا إن كان أحـد الفريقين في قضيّـة تتعلّق بقـانون الأحوال الشّخصيّـة مُثلاً ، قضي بينهما بالشّرع الإسلامي .

٧ ـ الشّعائر الدّينيّـة : ولأهل الـذّمّـة الحرّيّـة في إظهـار شعـائرهم داخل معابدهم ، فلا جناح عليهم ، وليس للدّولة الإسلاميّـة أن تتـدخّل بذلك ، ولهم أن يرمّموا هذه المعابد في مواضعها .

٨ ـ التّسـامـح في أخـذ الجزيـة والْخَرَاج : لقـد ورد النّهي عن التّشـديـد على أهل الـذّمّـة في الْجِـزْيَـة والْخَرَاج[3] ، والحثّ على الرّفـق

---

(١) الحسن البصري : تابعي من مشاهير الثّقات ، ولد بالمدينـة وأقام في البصرة ، وفيهـا توفّي سنة ٧٢٨ م .

(٢) حقوق أهل الذّمّة في الدّولة الإسلاميّة ، أبو الأعلى المودودي ، ص : ١٨

(٣) الْخَرَاج : ضريبـة تُفْرَض على الأرض الّتي صُولح عليها عنـد الفتح وبقيت في أيـدي =

واللُّطف معهم في كلِّ حال ، ومن يصبح فقيراً أو محتاجاً من أهل الـذِّمَّـة فلا يعفى من الجزية فحسب ، بل يجري له عطاء من بيت المـال ، وإن مـات أحَـدُ الـذِّميِّين وعليـه شيء من الجزيـة ، فلا يؤخـذ من تركتـه ، ولا يكلَّف ورثته بأدائه ، يقول أبو يوسف القاضي :

« إن وجبت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه ، أو أُخِذَ بعضها وبقي البعض ، لم يؤخذ بذلك ورثته ، ولم تؤخذ من تركته »[1].

ذكر ابن عابدين في حاشيتـه أنَّ فقهـاء المسلمين من كافَّـة المـذاهب الاجتهاديَّة صرَّحوا وأكَّدوا بأنَّ على المسلمين دفع الظُّلم عن أهل الـذِّمَّـة ، والمحـافظـة عليهم لأنَّ المسلمين حين أعطوهم الـذِّمَّـة قـد التزموا دفع الظُّلم عنهم ، وهم صـاروا بـه من أهل دار الإسلام ، بـل صرَّح بعضهم بـأنَّ ظلم الذِّمِّي أشد من ظلم المسلم إثماً .

تكلَّمت المستشرقـة الإيطـاليَّـة (لـورا ڤيشيـا فـاغليري)[2] عن المعاهدات الَّتي وقَّعها المسلمون مع الذِّمِّيِّين ، فقالت :

= أصحابها ، تدفع كل عام مرَّة واحدة ، قُبالـة الانتفـاع بشقِّ الطُّرق وأقنيـة المـاء .. [الأحكام السُّلطانيَّة : ١٧١] .

(١) كتاب الْخَرَاج ، ص : ٧٠

(٢) أُستاذة اللُّغة العربيَّة في جـامعـة نـابولي ، لهـا كتـاب مترجم إلى العربيَّـة ، عنوانـه : (دفاع عن الإسلام) .

« مُنِحَت تلك الشُّعوب حرِّيَّة الاحتفاظ بأديانها القديمة ، وتقاليدها القديمة ، شرط أن يدفع الَّذين لا يرضون الإسلام ديناً ، ضريبة عادلة إلى الحكومة تعرف بالجزية ، لقد كانت هذه الضَّريبة أخفَّ من الضَّرائب الَّتي كان المسلمون ملزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها ، ومقابل ذلك ، مُنح أُولئك الرَّعايا (المعروفون بأهل الذِّمَّة) حماية لا تختلف في شيء عن تلك الَّتي تمتَّعت بها الجماعة الإسلاميَّة نفسها ، ولَمَّا كانت أعمال الرَّسول ﷺ والخلفاء الرَّاشدين قد أصبحت فيما بعد قانوناً يتَّبعه المسلمون ، فليس من الغُلُوِّ أن تصرَّ على أنَّ الإسلام لم يكتفِ بالدَّعوة إلى التَّسامح الدِّيني ، بل تجاوز ذلك ليجعل التَّسامح جزءاً من شريعته الدِّينيَّة »[1] .

وقالت (لورا ڤيشيا فاغليري) أيضاً :

« ادفعوا جزية يسيرة تُسْبَغُ عليكم حماية كاملة ، أو اتَّخذوا الإسلام ديناً ، وادخلوا في مِلَّتنا فتتمتَّعوا بالحقوق نفسها الَّتي نتمتَّع بها نحن »[2] .

ويقول (غوستاف لوبون)[3] :

---

(١) دفاع عن الإسلام ، ص : ٣٤ ـ ٣٥

(٢) دفاع عن الإسلام ، ص : ٣٢

(٣) غوستاف لوبون (١٨٤١ ـ ١٩٣١) من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيِّين ، من كتبه الهامَّة : (حضارة العرب) .

« جزية زهيدة تقلُّ عمَّا كانت تدفعه إلى سادتها السَّابقين من الضَّرائب »[1] .

خامساً :

الكنيسة القبطيَّة في مصر ، كم عمرها ؟

كنائس في كلِّ المدن حتَّى يومنا هذا ، تعود إلى ما قبل الفتح العربي الإسلامي ، مع أنَّ مصر فُتِحَت أيَّام عمر بن الخطَّاب ، فلماذا هُدِمَت الكنائس ـ كما يَدَّعي ڤيكتور هوغو ـ في بلاد الشَّام ، وتُرِكت هنا في مصر ، مع أنَّ العقيدة واحدة ، والخليفة واحد ، والعصر واحد ، حتَّى إن معظم الجند الفاتحين في مصر ، كانوا من جُنْدِ الفتح في بلاد الشَّام ؟

لقد ذُكِرَت الكنائسُ ودورُ العبادة في القرآن الكريم بكلِّ خيرٍ ، فكيف يهدمها عمر ؟

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

---

(١) حضارة العرب ، ص : ١٢٤

وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج ٢٢/٤٠] .

سادساً :

يــا أُخت ، عصر ڤيكتــور هــوغــو عصر استعمار فرنســة للجــزائر المسلمة ، ودافع (كليرمون دي تونير) وزير الحربيَّة الفرنسي عن وجهة نظره المتعصِّبة ـ والصَّليبيَّة ـ في الاحتلال ، في تقرير وجَّهه إلى الملك شارل العاشر ، ممَّا جاء فيه : « لقد أرادت العناية الإلهيَّة أن تثأر حميَّة جلالتكم بشدَّة في شخص قنصلكم على يد ألدّ أعداء المسيحيَّة ، ولعلَّه لم يكن من باب المصادفة أن يُدعى ابن لويس التَّقي[1] لكي ينتقم للدِّين وللإنسانيَّة ، ولإهانته الشَّخصيَّة في الوقت نفسه ، وربما يسعدنا الحظُّ بهذه المناسبة لننشر المدنيَّة بين السُّكَّان الأصليِّين وندخلهم في النَّصرانيَّة » .

ولَمَّا تمَّ احتلال الجزائر ، أقام (بورمون) قائد الحملة الفرنسيَّة صلاةَ الشُّكر في فناء (القَصَبة) بمناسبة الانتصار ، وبعث بوصف لهذا

---

(١) لويس Louis التَّاسع : (١٢١٤ ـ ١٢٧٠) قاد الحملَتَيْن الصَّليبيَّتَيْن السَّابعة والثَّامنة ، وفي عام ١٩٩٥ يصادف مرور ٩٠٠ عام على بدء الحروب الصَّليبيَّة . أجار الله العالم من حملات صليبيَّة جديدة واسعة ، فما جرى في (البوسنة والهرسك) من وحشيَّة وبربريَّة يذكر بفظائع الحروب الصَّليبيَّة .

الاحتفـال ، قـال في نهـايتـه : « مولاي ، لقـد فتحتَ بهـذا العمل بـابـاً للمسيحيَّة على شاطئ إفريقية ، ورجـاؤنـا أن يكون هـذا العمل بـدايـة لازدهـار الحضـارة الَّتي انـدثرت في تلـك البلاد » ، ولم يخفِ المؤرِّخـون المعـاصرون هـذه الحقيقـة ، فـوصف (إدوار دريـو) المـؤرِّخ الفرنسي المعروف بدراساته عن الشَّرق حادثَ الاستيلاء على الجزائر : « بـأنَّـه كان أوَّل إسفين دُقَّ في ظهر الإسلام »[1] .

ياأُخت ، سقطت حصون المدينة ـ مـدينـة الجزائر ـ وأُمليت على الـدَّاي شروط التَّسليم ، وفي صبـاح ٥ تموز (يوليو) ، ١٨٣٠ م ، دخلت القوَّات الفرنسيَّة المدينة العتيدة ، ولم يراعَ البند الخاص باحترام الشَّعـائر الدِّينيَّة كما نصَّت المعـاهـدة ، حينمـا حوَّل الفرنسيُّون المسجـد الكبير إلى كتدرائيَّة .

لقد كان الإسلام هـدفـاً كبيراً أمـام الفرنسيِّين : « إذ كان الاستعمار الفرنسي استعماراً صليبيّـاً ، كما أعلنـوا ، ومن ثَمَّـة كانت أُولى أعمـالهم هـدم المساجد الأثريَّـة الرَّائعـة وتحويلهـا إلى كنـائس .. وقف الجنرال روفيجو يشير إلى الفرنسيِّين باختيار مسجد من مسـاجـد الجزائر ليصير كنيسـة ، فـأشـاروا عليـه بجـامـع (القشـاوة) ، وهـو من أجمـل مسـاجـد البـلاد

(١) المغرب العربي ، ص : ٨٦ ، والجزائر أرض المعارك ، ص : ٥٤/٥٥

وأروعها ، وكان في المسجد أربعة آلاف مسلم ، انقضَّ عليهم الفرنسيُّون وذبحوهم عن آخرهم ، وهم يعتصمون ببيت من بيوت الله ، وفي ١٨ كانون الأوَّل (ديسمبر) ، من عام ١٨٣٢ ، كان المسجد كتدرائية الجزائر ، ولقد حوَّلوا ـ غير هذا المسجد ـ مساجد أُخرى كنائس ، مثل مسجد (القَصَبة) ، وهو من المساجد الَّتي ترتبط بها ذكريات إسلاميَّة مجيدة .

وخلال هذه الحملة الصَّليبيَّة على أماكن العبادة الإسلاميَّة ، قام أحد القسس المسيحيِّين ، وهو القسُّ (شوسيه) يتزعَّم هذه الحملة الباغية ، ويسرف على نفسه وعلى المسيحيَّة ، فيكتب إلى ملك فرنسة سنة ١٨٣٩ منوِّهاً بأعمال الحاكم الفرنسي الصَّليبي ، إنَّه يريد أن يضاعف عدد الصُّلبان والكنائس بالجزائر ، إن مولاي لا يستطيع أن يفعل ما يشاء مع رجل مثل المسيو ڤاليه ، الَّذي اختار أجمل مسجد في قسنطينة ، ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة ، وكانت مكافأة هذا القس الصَّليبي أن يصير أوَّل راع لهذه الكنيسة الَّتي قامت على أنقاض مسجد من مساجد المسلمين !

ويبلغ الحمق والحقد حدّاً كبيراً بأحد الفرنسيِّين ، وهو سكرتير الحاكم (بُوجُو) ، فيقول في الكنيسة الَّتي قامت وسط دماء أربعة آلاف شهيد مسلم :

إنَّ آخر أيَّام الإسلام قد دَنَت ، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إلـه غير المسيح ، ونحن إذا أمكننـا أن نشـكَّ في أنَّ هـذه الأرض تملكها فرنسة ، فلا يمكننـا أن نشـكَّ في أنَّهـا قـد ضَـاعَت من الإسلام إلى الأبـد ، أمَّـا العرب فلن يكـونـوا مُلْكاً لفرنسـة إلاَّ إذا أصبحـوا مسيحيِّين جميعاً .

ومن أجل هـذه الصَّليبيَّـة في بلـد إسلامي ، بـذل المبشِّرون جهوداً كبيرة ، وشجَّعت الإدارة الفرنسيَّـة بنـاء المعـابـد اليهوديَّـة ، والكنـائس المسيحيَّة حتَّى صـار في الجـزائر ٣٢٧ كنيسـة للمسيحيِّين ، و ٤٥ معبـداً لليهود ، إلى جانب ١٦٦ مسجداً فقـط للمسلمين[١] ، مع أنَّهم أهل البلاد ، والأغلبيَّة السَّاحقة من حيث العدد !!

إنَّ عصر هوغو عصر استعمار الجزائر ، وهدم مسـاجـدهـا وتحـويلهـا إلى كنـائس ، فكان (الإسقـاط) ، لقـد وُصِم الفرنسيُّون بسـوء عملهم وتعصُّبهم أمـام الرَّأي العـام العـالمي كلِّـه ، فـادَّعَى هوغـو زوراً وبهتـانـاً (إسقـاطـاً) : يـا قـوم ، لا عجب ممَّـا يجري على أرض الجـزائر بعـد استعمارهـا ، لقـد سبقنـا المسلمـون أيَّـام عمر بن الخطَّـاب إلى مثـل هـذا العمل ، ليخفِّف من اشمئزاز العالم نحو قومه المستعمرين .

---

(١) الجزائر أرض المعارك ، ص : ٧٤

سابعاً :

لقد كانت بلاد الشّام ميدان القتال الرّئيس في مطلع القرن السّابع الميلادي ـ قُبيل الفتح الإسلامي ـ بين الفُرس والرُّوم البيزنطيّين ، لقد تقدَّم الفُرْس واحتلُّوا أنطاكية سنة ٦١١ م ، ثمَّ القدس سنة ٦١٤ م ، ثمَّ مصر سنة ٦١٩ م ، ولكن هرقل Heraclius ، إمبراطور بيزنطة (٦١٠ ـ ٦٤١ م) ردَّ الفُرْس إلى ما وراء نهر الفرات ، واستردَّ عود الصَّليب سنة ٦٢٢ م ، ثمَّ كان ـ بعد عشر سنوات فقط ـ الفتح العربي الإسلامي ، فانكسرت جيوش هرقل ، وخَسِرَت بيزنطة سوريَّة وفلسطين (أي بلاد الشَّام) ، وبلاد ما بين النَّهرين ومصر .

فإن وجدت في بلاد الشَّام كنائس مهدَّمة مع بدايات الفتح العربي الإسلامي ـ أيَّام عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ـ فهي من آثار الحروب الفارسيَّة البيزنطيَّة قطعاً .

ثامناً :

يا أُخت ، أخيراً ، وبشكل عام ، لم يكن ڤيكتور هوغو أوَّل من افترى ، وآخر من أسقط علينا سيِّئات قومه .

إن افتراءات المستشرقين تتكرَّر على رأس كلِّ جيل ، أُولئك الَّذين ركَّزوا على أُمور أُعيدت في كلِّ كتاباتهم وتكرَّرت ، أهمُّها :

ـ محمَّد ليس نبيّاً ، لأنَّه تلقَّى القرآن من ورقة بن نوفل ، أو بَحِيرى ..

ـ والإسلام مزيجٌ من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والوثنيَّة .

ـ وانتشر الإسلام بالسَّيف ، حين قال للنَّاس : أسلموا أو موتوا ، بينما أتباع المسيح ربحوا النُّفوس ببرِّهم وإحسانهم[1] .

ويقع المبشِّرون بذلك (بالإسقاط) ، ولو ألزموا أنفسهم البحث العلمي الَّذي يفرض على الباحث الحرِّ المنصف أن يدرس الإسلام كما يعتقده أهله ، مجرَّداً من نزعاته السَّابقة ، غير جاعل لصليبيَّته سلطاناً على حكمه : « حتَّى لا تسيِّره في دراسته ، وتتحكَّم في اتِّجاهاته ، لأنَّ ذلك قد يدفعه لأن يتزيَّد على القوم ، والتَّزيُّد ليس من شيمة العلماء ، أو يدفعه لأن يتأوَّل كلامهم بغير ما يريدون ، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هي في ذاتها ، بل يدركها كما انعكست في نفسه ، وكما رُسِمَت على قلبه ، وقد يباعد ذلك الأمر في ذاته »[2] .

ونحن لا نريد أن نهاجم اعتقاداً ، أو نُبْطِل عقيدة ، فعندنا من سعة الصَّدر ما يتَّسع لردِّ افتراءاتهم وهفواتهم ، ولكننا نذكِّر هؤلاء

---

(١) قدّمنا في كتاب (الإسلام في قفص الاتِّهام) دحض هذه الافتراءات وعشرات غيرها .

(٢) محاضرات في النَّصرانيَّة ، ص : ٨

المبشِّرين الَّـذين (أسْقَطُـوا) علينـا مـافيهم ، ومـا عنـدهم ، أن مجمع نيقيـة ٣٢٥ م أمر بتحريـق الكتب الَّتي تخـالف رأيـه ، وتتبَّعهـا في كلِّ مكان ، وحثَّ النَّاس على تحريم قراءتها ، فهو بهـذا منع أن يصل النَّـاس إلى علم بأيِّ أمر من الأُمور الَّتي تخالف رأيه ، ومنعها منعاً باتّاً جازمـاً أن تقرأ غيره ، وسـدَّ عليهـا منـافـذ النُّور للاهتـداء إلى مـا يخـالفـه ، والمجمع مخطئ في ذلك التَّحريم ، وآثم في ذلك التَّحريق ، بل إنَّ المجامع العـامَّـة من بعده خطَّأته ، فأعادت إلى حظيرة التَّقديس كتباً حرَّمها .

يقول المؤرِّخ أبوسيبوس الَّـذي تقـدِّس الكنيسـةُ كلامَـه ، وتسمِّيـه سلطان المؤرِّخين : « إنَّ قسطنطين[1] عُمِّد حين كان أسير الفراش ، وإن الَّذي عمَّده هو ذلك المؤرِّخ نفسـه ، وقـد كان صـديقـاً لـه » ، والتَّعميـد إعلان دخول المسيحيَّـة ، إذاً قسطنطين مـا كان مسيحيّاً في إبّان انعقـاد ذلـك المجمع ، ومـا كان من حقِّـه أن يحكم بنهج هؤلاء ، ويسـوِّغ لنـا أن نقول إنَّه كان في هـذا أرب خـاص ، هو تقريـب المسيحيَّة من الوثنيَّـة ، أو على الأقلِّ حينمـا رجَّح رأيَ فريق على آخر ، كان يرجِّح مـاهو أقرب إلى وثنيَّته »[2] .

---

(١) قسطنطين بن قسطنتيوس كلورس (٢٧٤ ـ ٣٣٧ م) ، إمبراطـور رومـاني منـذ سنـة ٣٠٦ م ، هزم خصمه ماكسانس على أبواب رومة سنة ٣١٢ م ، وأطلق الحرِّيَّـة للـدِّين المسيحي ، أسَّس عاصمة جديدة سمَّاها القسطنطينيّة ودشَّنها سنة ٣٣٠ م .

(٢) محاضرات في النَّصرانيَّة ، ص : ١٢٨/١٣٠

ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة ، أجمع على ذلك مؤرّخو النّصرانيّة ، ثمّ أرادت الكنيسة في آخر القرن الثّاني الميلادي ، وأوائل القرن الثّالث ، أن تحافظ على الأناجيل الصّادقة في اعتقادها ، فاختارت هذه الأناجيل الأربعة ، وألزمت المسيحيّين بها ، وفرضت عليهم سلطاناً كهنوتيّاً أبعدهم عمّا في أناجيلهم ، ماذا كان في هذه الأناجيل الّتي أُلغيت ؟ وقد ثبت أنّ قسطنطين هو الّذي رسّخ التّثْليث ودعمه على حساب التّوحيد .

والغريب أنّ المبشّرين يؤمنون بعشرات الأنبياء لبني إسرائيل ، فأيّة صفة فيهم لا نجدها في محمّد بن عبد الله ؟

وما الأدلّة والمعجزات الّتي قاموا بها ، ولا نجدها في محمّد بن عبد الله ﷺ إنْ لم نجد أعظم منها عنده ؟

وماذا يضير هؤلاء المبشّرين في انتشار عقيدة الإسلام على سطح كرتنا الأرضيّة ، وقد طرحت مبدأ المؤاخاة والتّسامح ، ولم تجعلها شعاراً ، بل منهجاً أثبتته الوقائع والأعمال في كلّ بلد فتحه المسلمون ؟

لقد كان من المفروض ـ بدل الافتراءات والشّبهات ـ أن يطبع النّصارى القرآن الكريم مع إنجيلهم ، طبعوا التّوراة وهي لم تذكر السّيّد المسيح وأمّهُ الطّاهرة البَتُول ولو مرّة واحدة ، أمّا القرآن الكريم ، ففيه السّور الطّويلة عن حياة مريم والمسيح .

جاء في القرآن الكريم سورة عائلة السَّيِّد المسيح : (آل عمران) ، و (آل) كلمة تُخاطَبُ بها العائلات الكريمة الطَّيِّبة الشَّريفة .

وسورة باسم معجزة السَّيِّد المسيح (المائدة) ، وفيها ثلاث معجزات للسَّيِّد المسيح لم تذكرها الأناجيل ، وهي :

١ ـ نُزُول المائدة :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُم مؤمِنِينَ ☆ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ☆ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ☆ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاأُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ ﴾ ، [المائدة : ١١٢/٥ ـ ١١٥] .

٢ ـ وإحياء الطَّير :

﴿ ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي .. ﴾ ، [المائدة : ١١٠/٥] .

٣ ـ والتَّكلُّم بالمهد :

﴿ إذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ، وَعَلَى وَالِدَتِكَ إذْ أيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُس تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً[1] ... ﴾ ، [المائدة : ١١٠/٥] .

وسورة باسم والدته البتول (مريم) :

﴿ واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ☆ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فأرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ☆ قَالَتْ إنِّي أعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً ☆ قَالَ إنَّمَا أنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ☆ قَالَت أنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أكُ بَغِيّاً ☆ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أمْراً مَقْضِيّاً ﴾ ، [مريم : ١٦/١٩ ـ ٢١] .

وسورة باسم الأتباع (الكهف) :

﴿ ... إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ، [الكهف : ١٣/١٨] .

---

(١) وفي سورة مريم [٢٩/١٩ ـ ٣٣] : ﴿ ... قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ☆ قَالَ إنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ☆ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أيْنَ مَا كُنْتُ وَأوْصَانِي بالصَّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ☆ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ☆ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ .

وكُلُّها من السُّور الطِّوال .

لقد فتح القرآن بابَ التَّسامح على مصراعيه حينما فتح حواراً مع المسيحيَّة عن طريق سورة المائدة [٨٢/٥ و٨٣] :

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ☆ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

وعن طريق سورة مريم وآل عمران ، حيث التَّقدير والاحترام للمسيح وأُمِّهِ الطَّاهرة :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ☆ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ، [آل عمران : ٤٢/٣] .

ولو وجدنا في الإنجيل :

« واذكر في الكتاب خديجة ، أو آمنة ، أو إنَّ الله اصطفى فاطمة ... » .

لكان الحبُّ واللِّقاء مع مَنْ يُعَظِّم ويقدِّر ويُبَجِّل ، ولرددنا التَّحيَّة بأحسن منها ، أو بمثلها على الأقل .

والتَّسامح وفتح الحوار للتَّآلف أمر طبيعي في الإسلام ، لسعة صدره من ناحية ولعالميَّته من ناحية ثانية :

﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، [آل عمران : ٦٤/٣] .

قال رجا غارودي : « لم يدرس الغرب الإسلام دراسة صحيحة ، حتَّى في الجامعات الغربيَّة ، وربما كان هذا مقصوداً مع الأسف » .

ولذلك .. ألَّف الكاتب البريطاني (جان دوانبورت) كتاباً عنوانه : (اعتذار لمحمَّد والقرآن) ، اعتذر فيه مؤلِّفه عن التَّصوُّرات والأحكام الَّتي كانت شائعة في الغرب حول نبيِّ الإسلام ﷺ .

كتبت المستشرقة الفرنسيَّة معظم ما قُلْتُ ، ثمَّ قالت :

سأُعيد النَّظر في رسالتي ، وبما كتبت فيها وأنا في فرنسة ، وآمل أن أنقل وجهةَ نظرك هذه بأمانة ، وسأُخالف ڤيكتور هوغو بما قال وقرَّر .

قُلْتُ : وأنا سأُسجّل ما دار بيننا من حوار خطّيّاً ، ومع أن سياسة الغرب مبنيَّة على مهادنة الإسلام ريثما تتمُّ الغلبة عليه ، ستبقى سياسة الإسلام ـ والمسلمين ـ التَّسامح وفتح باب الحوار مع العقائد الأُخرى ، وآمل أن تكون المرحلة القادمة ، وقد أشرفنا على مطلع القرن الحادي والعشرين ، مرحلة الانتفاع من الخير أينما وجد ، ولو كان عند الإسلام ونبيِّه ، ومرحلة اتِّباع الحقيقة ولو خالفت مسلَّمات كنّا نحملها عن الشَّرق وأهله .

وبعد مجاملات ، استأذن زميلي واستأذنت ، فودعتهما قائلاً :

سأنشر ما دار بيننا من حوار ، بعد إضافة ثلاث نقاط :

١ ـ معنى التَّسامح لغويّاً .

٢ ـ كيف انتشر الإسلام ، وتسامحه وهو في أوج قوّته وانتصاره ، وكيف انتشرت المبادئ الأُخرى ؟!

٣ ـ مع تسجيل بعض الشَّهادات المنصِفَة عن تسامح الإسلام وأهله .

والحمد لله أوَّلاً وآخراً .

د . شوقي أبو خليل

التسامح

جاء في [اللِّسان : سمح] :

السَّماح والسَّماحة : الْجُودُ ، سَمُحَ سَماحَةً وسُمُوحـةً وسَماحـاً : جـاد ، ورجلٌ سَمْحٌ ، وامرأة سَمْحة من رجال ونساء سِماح وسُمَحاء فيهما ، ورجل سَميحٌ ومِسْمَح ومِسْمَاحُ : سَمْحٌ ، ورجال مَسَاميح ونساء مَسَاميح .

يقول جرير :

غَلَبَ الْمَسَاميحَ الـوَلِيـدُ سَماحـةً ... وكَفَى قُريشَ الْمُعْضِلاتِ ، وسَادَها

وقال آخر :

في فِتْيَـةٍ بُسُـطِ الأكُفِّ مَسَـامِحٍ ... عِنْـدَ الفِضَـالِ نَـديمُهُم لَمْ يَـدْثُرِ

وسمـح لي بـذلـك يَسْمَـحُ سماحـة ، وأسْمَـحَ وسـامَـحَ ، وافقني على المطلوب ، أنشد ثعلب :

وَلَـو كنتَ تُعطي حين تُسْأَلُ سـامَحَتْ

لَـكَ النَّفسُ ، واحْلَـولاكَ كلُّ خليـلِ

والمسامحة : الْمُساهلة ، وتسامحوا : تَسَاهَلُوا .

وفي الحديث الشَّريف :

« يقول الله عزَّ وجلَّ : أسْمِحُوا لعبدي كإسماحه إلَى عبادي » .

الإسماح : لغة في السَّماح ، يقال : سَمَحَ وأسْمَحَ إذا جاد وأعطى عن كَرَمٍ وسَخَاءٍ .

وفي الحديث المشهور : « السَّماح ربَاحٌ » ، أي الْمُسَاهلةُ في الأشياء تُرْبِحُ صاحبها ، وسَمَحَ وتَسمَّحَ : فَعَلَ شيئاً فَسَهَّل فيه ، أنشد ثعلب :

ولكنْ إذا ما جَلَّ خَطْبٌ فسامَحَتْ بِهِ النَّفسُ يوماً ، كانَ للكُرْهِ أذْهَبَا

قال ابن الأعرابي : سَمَح له بحاجته وأسْمَح ، أي سَهَّلَ له .

وسئل ابن عباس عن رجل شرب لبناً مَحْضاً أيتوضَّأ ؟

قال : اسْمَحْ يُسْمَحْ لك ، ومعناه ـ كما يقول الأصمعي ـ سَهِّلْ يُسَهَّلْ لك وعليك ، وأنشد :

فلما تنازعنا الحديثَ وأسْمَحتْ

قال : أسْمَحت أسهلت وانقادت .

وتقول العرب : عليك بالحق ، فإنَّ فيه لَمَسْمَحاً ، أي متَّسَعاً .

وعُودٌ سَمْحٌ بَيِّنُ السَّماحَةِ والسُّموحَةِ : لا عُقْدَةَ فيه .

ويقال : ساجَةٌ[1] سَمْحة إذا كان غِلَظُها مستويَ النَّبتَةِ وطرفاها لا يفوتان وَسَطَه .

وتسميح الرُّمح : تثقيفُه[2] ، ورمحٌ مُسَمَّح : ثقف حتَّى لآنَ .

والتَّسميح : السُّرعة ، وقيل : التَّسميح : السَّير السَّهل .

☆ ☆ ☆

وفي الأحاديث الشَّريفة :

ـ « اسمح يُسْمَح لك »[3] ، أي سَهِّل يُسَهَّل عليك .

ـ « إنِّي أُرسلتُ بحنيفيَّة سمحة »[4] ، أي ليس فيها ضيق ولا شدَّة .

ـ « أفضل المؤمنين رجل سمح البيع ، سمح الشِّراء ، سمح القضاء ، سمح الاقتضاء »[5] .

---

(١) السَّاج : خشب يجلب من الهند ، واحدته ساجَةٌ ، [اللِّسان : سَوَج] .

(٢) تثقيف الرِّماح : تسويتها ، الثِّقاف : ما تُسَوَّى أو تقوَّم به الرِّماحُ ، [اللِّسان : ثقف] .

(٣) رواه الإمام أحمد ٢٨٤/١ ، ورجاله رجال الصَّحيح ، إلاَّ مهدي بن جعفر .

(٤) رواه الإمام أحمد ١١٦/٦

(٥) رواه الطَّبراني في الأوسط ، ورواته ثقات .

- « رحم الله عبداً سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى »[1].

- « أحبُّ الدِّين إلى الله الحنيفيَّة السَّمحة »[2].

- « دخل رجلٌ الجنَّة بسماحته ... »[3].

- « السَّماح رباح »[4] ، أي المساهلة في الأشياء يربحُ صاحِبُها .

لم يَرِد فعل (سَمَحَ) ومشتقاتُه في القرآن الكريم ، ولكن وردت كلمات تعطي المعنى ذاته ، هي :

« الصَّفح » و « الإحسان » ، اللَّذان هما : ضدُّ التَّعنُّت ، والتَّعصُّب ، والتَّطرُّف ، والغُلُوّ .

١ ـ الصَّفح :

- ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى

(١) رواه البخاري ، وابن ماجه ، والتِّرمذي .
(٢) رواه البخاري ، والإمام أحمد ٢٣٦/١
(٣) رواه الإمام أحمد ٢١٠/٣ ، ورواته ثقات مشهورون .
(٤) النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير الجزري : ٢٩٨/٢ ، تحقيق محمود محمد الطَّناحي ، وطاهر أحمد الزَّاوي ، دار إحياء الكتب العربيَّة ، ط١ ، ١٩٦٣ م .

يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، [البقرة ١٠٩/٢] .

- ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، [المائدة ١٣/٥] .

- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ، [الحجر : ٨٥/١٥] .

- ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ(١) أُوْلُوْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، [النُّور : ٢٢/٢٤] .

- ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، [الزُّخرف : ٨٩/٤٣] .

٢ ـ الإحسان(٢) :

- ﴿ ... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... ﴾ ، [البقرة : ٨٣/٢] .

---

(١) لا يَأْتَل : لا يُقْسِمْ .

(٢) آيات الإحسان في القرآن الكريم كثيرة ، ننتقي بعضها فقط .

- ﴿ ... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، [البقرة : ٢/١٩٥] .

- ﴿ ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ، [النحل : ١٦/١٢٥] .

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، [النحل : ١٦/٩٠] .

- ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ ، [المؤمنون : ٢٣/٩٦] .

- ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، [القصص : ٢٨/٧٧] .

- ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ، [العنكبوت : ٢٩/٤٦] .

- ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، [فصّلت : ٤١/٣٤] .

فَالتَّسامُحُ :

الَّذي هو الصَّفح والعفو والإحسان .

والَّذي يقابله التَّعنُّت والتَّعصُّب والتَّطرُّف والغُلُوّ ..

نظرة إنسانيَّة لا يمتلكها إلا الإسلام ، « فبينما يقبل المسلمون بينهم وجود أديان مغايرة لدينهم ، ويرفضون إكراه أحدٍ على ترك ملَّته ، ويرضون أن يتآلف المجتمع من مسلمين وغير مسلمين ، ويُشرِّعون نُظُماً عادلة لتطَبَّق عليهم وعلى مَنْ في ذمَّتهم من مسيحيِّين أو يهود .

فمن خصائص حضارتنا الإسلاميَّة ، أنَّها لا تحكم بالإعدام على الثَّقافات الأُخرى ، والحوار هو البديل ، والتَّعدُّديَّة في الثَّقافة ثراء للفكر ، وإقرار الإسلام بتعدُّد العقائد ، إقرار بمشيئة الله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ، [هود : ١١/١١٨] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاآتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، [المائدة : ٥/٤٨] .

نحاور بالَّتي هي أحسن : ﴿ ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ، [النَّحل : ١٦/١٢٥] .

وعلى الرغم من هذا كله ، نرى المسيحيَّة تتبرَّم من الديانات الأخرى ، وترسم سياستها الظَّاهرة والباطنة لإبادة خصومها ، أو تحقيرهم وحرمانهم ، حتَّى ترغمهم على ترك دينهم وتجبرهم على النَّصرانيَّة جبراً .

وبينما يقول القرآن :

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، [البقرة ح ٢٥٦/٢] .

تنسب الكتب المقدَّسة إلى المسيح أنَّه قال لحوارييه : أجبروهم على اعتناق دينكم »[1] .

ولكن كيف نوفِّق بين تسامح الإسلام ، وبين الايات الكريمة التَّالية :

- ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، [آل عمران : ٢٨/٣] .

- ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ ، [المائدة : ٥١/٥] .

---

(١) التَّعصُّب والتَّسامح ، لمحمد الغزالي ، ص : ٥٦

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ﴾ ، [التَّوبة : ٨/٩] .

الآيات السَّابقة لا صلة لها البتَّة بموقف الإسلام المتسامح ، لأنها وردت في المعتدين على الإسلام والمحاربين لأهله ، وتنفير أفراد الأُمَّة من معاونة خصومها واجب يتجدَّد في كلّ عصر .

فصدور قانون يحرِّم التَّعاون مع قوَّات أجنبيَّة ، لا يفهم منه البغضاء للعالم أجمع ، وأنَّه يشتري خصومة العالم من غير مبرِّر .

لقد قال السَّيِّد المسيح :

« ما جئت لأُلقي سلاماً بل سيفاً »[1] .

فهل يفهم أحد من ذلك أنَّ رسالة المسيحيَّة إيقاد الحروب في الأرض ، وأنَّها لا تحيا بين النَّاس إلاَّ لسفك الدّماء ؟

إنَّ الإسلام يدفع عن نفسه إذا هوجم ، ويأمر بمسالمة من يتركونه وشأنه ، غير متعرِّضين لسير دعوته في الأرض ، ولا صادِّين أحداً عن الدُّخول فيها[2] .

---

(١) إنجيل متَّى : ٣٤/١٠

(٢) التَّعصُّب والتَّسامح ، ص : ٤٠

﴿ ... لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ .. ﴾ ، [المائدة : ٥١/٥] .

الآيات اللاّحقة بهذه الآية المرتبطة بها في موضوعها تحدّد الموضوع بجلاء لا يحتمل خلطاً .

« فالحقُّ أنَّ الآيات نزلت تطهيراً للمجتمع الإسلامي من ألاعيب المنافقين ، ومن مؤامراتهم الّتي تدبَّر في الخفاء لمساعدة فريق مُعيَّن من أهل الكتاب أعلنوا على المسلمين حرباً شعواء ، واشتبكوا مع الدّين الجديد في قتال هو بالنّسبة لهم قتال حياة أو موت .

فاليهود والنّصارى في هذه الآية قوم يحاربون المسلمين فعلاً ، وقد بلغوا في حربهم منزلة من القوّة جعلت ضعاف الإيمان يفكّرون في التّحبُّب إليهم ، والتّجمُّل معهم ، فنزلت هذه الآية ونزل معها ما يفضح نيّات المتخاذلين في الدّفاع عن الدّين الّذي انتسبوا إليه :

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ ، [المائدة : ٥٢/٥] .

ثمّ تستطرد الآيات في توصية المؤمنين بتدعيم صفوفهم أمام المتربّصين والمتهجّمين تطالبهم بمقاطعة المحاربين للإسلام من أهل الكتاب مسوّغة هذه المقاطعة بأنّها ردٌّ للعدوان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مؤمِنِينَ ☆ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً .. ﴾ ، [المائدة : ٥/٥٧ ، ٥٨] .

فهل هناك ضير على دين ما إذا منع أتباعه من مصادقة الَّذين يتهكَّمون بتعاليه ، ويسخرون من شعائره ؟

أما قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً .. ﴾ ، [التَّوبة : ٩/٨] .

فالآية قبلها مباشرة تشرحها :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ .. ﴾ ، [التَّوبة : ٩/٧] .

والمعنى الَّذي لا يضطرب عاقل في إدراكه أن المقصود بالآية هم الوثنيُّون المهاجمون للإسلام ، النَّاكثون لعهودهم معه[1] .

---

(١) التَّسامح والتَّعصُّب ، ص : ٤١ ، عن : (الإسلام والاستبداد السِّياسي) .

والآية الكريمة صريحة واضحة :

﴿ لاَ يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُـوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ☆ إِنَّمَـا يَنْهَـاكُمُ اللهُ عَنِ الَّـذِينَ قَـاتَلُـوكُمْ فِي الـدِّينِ وَأَخْرَجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ وَظَـاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أن تَـوَلَّـوْهُمْ وَمَن يَتَـوَلَّهُمْ فَـأُوْلَئِـكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، [الممتحنة : ٦٠/٨-٩] .

فالإسلام يمدُّ يده لمصافحة أتباع الأديان الأُخرى لتحقيق التَّعـاون على إقامة العدل ، ونشر الأمن ، وصيانـة الـدِّمـاء أن تُسفَكَ ، وحمـايـة الحرمات أن تنتهك .

والإسـلام لم يقم على اضطهـاد مخـالفيـه ، أو مصـادرة حقـوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم ـ لأن حرِّيَّة الاعتقاد مصانة ـ أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم .

وشتَّان بين التَّسامح والضَّعف والعجز ، فكثيرون لا يقـدِّرون هـذا النُّبـل ، وربَّما استغلُّوا هـذه السَّماحـة في الإسـاءة إلى الإسـلام ، الَّـذي وسعتهم دائرته المرنة .

☆ ☆ ☆

(الحوار) من حقّ الجميع ، وحقٌّ للجميع ضمانات الحوار ، فلا عنف ، ولا مصادرة لرأي الآخر ، لقد استشهد الطَّبري في تفسيره بشعراء نصارى كالأخطل ، وبجاهلي يهودي كالسَّموءل ، فلا تشنُّج ، بل تسامح ـ يجب أن يكون عند الطَّرفين ـ ثمَّ الحساب على الله :

﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، [البقرة : ١١٣/٢] .



كيف انتشر الإسلام ؟
وكيف انتشرت الشَّرائع الأُخرى ؟

اتِّهامات بِالتَّعصُّب :

قال كارل بروكلمان : « يتحتَّم على المسلم أن يعلنَ العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم ، لأنَّ محاربة غير المسلمين واجب ديني »[(١)] .

« مِنَ الثَّابت أنَّ الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلاَّ عندما كان يهدف إلى الغزو »[(٢)] .

ويرجع كلٌّ من ميور وكيتاني ازدياد عدد المؤمنين إلى الانتصارات العسكريَّة ، وإكراه النَّاس على الدَّعوة الموجودة في تعاليم الإسلام[(٣)] .

« وأخضع سيفُ الإسلامِ شعوبَ إفريقية وآسية شعباً بعد شعب »[(٤)] .

---

(١) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص : ٧٨

(٢) فردريك موريس : The Religions of The Word P.28, Cambirdge 1852

(٣) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٤٦٩

(٤) التَّبشير والاستعمار ، ص : ٤١

« إنَّ تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدّماء والحروب والمذابح »[1] .

« في القرن السَّابع للميلاد برز في الشَّرق عدو جديد ، ذلك هو الإسلام الَّذي أُسِّس على القُوَّة ، وقام على أشدِّ أنواع التَّعصُّب ، لقد وضع محمَّد السَّيف في أيدي الَّذين اتَّبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثمَّ سمح لأتباعه بالفُجُور والسَّلب ، ووعد الَّذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدَّائم بالملذَّات »[2] .

« إنَّ هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوَّة ، وقالوا لِلنَّاس : (أسلموا أو موتوا) ، بينما أتباع المسيح ربحوا النُّفوس ببِرِهم وإحسانهم »[3] .

☆ ☆ ☆

إنَّ هذه الافتراءات تتهاوى أمام عرض سريع لحقائق التَّاريخ - فبعض الرَّبيعِ ببعض العِطْرِ يُخْتَصَرُ - عن انتشار الإسلام :

أُذِنَ للمسلمين بعد هجرة رسول الله ﷺ بالقتال في الآية الكريمة :

(١) لطفي ليفونيان ، Levonian 9

(٢) البحث عن الدّين الحقيقي ، المنسنيور كولي ، ص : ٢٢٠ ، ط ١٩٢٨

(٣) تاريخ فرنسة ، هـ . غيومان ، ف لوستير ، ص : ٨٠ - ٨٢

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ☆ الَّـذِينَ أُخْرِجُـوا مِنْ دِيَـارِهِمْ بِغَيْرِ حَـقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُـولُـوا رَبُّنَـا اللهُ .. ﴾ ، [الحج : ٢٢/٣٩ـ٤٠] .

﴿ وَقَـاتِلُـوا فِي سَبِيـلِ اللهِ الَّـذِينَ يُقَـاتِلُـونَكُمْ وَلاَ تَعْتَـدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، [البقرة : ٢/١٩٠] .

إنَّ القتـالَ لم يشرَّع في الإسـلام إلاَّ (دفـاعـاً عن النَّفْس) ومـا إلى ذلـك من العِرْض والمـال ، عنـدمـا يصـادر رأي الآخر ، ويمنع من حـقِّ حرِّيَّة الكلمة والعقيدة ، ورسول الله ﷺ ماأراد قتالاً أو سفك دمـاء في غزوة بدر الكبرى ، لقد أراد حرباً اقتصاديَّـة ضـدَّ قريش ، ليعوِّض عمَّـا صودر في مكَّة المكرَّمة .

وفي معركة أُحُـد أراد البقـاء في المـدينـة المنوَّرة ، والمحـاصرة لـدفع قريش بأقل خسائر ممكنة .

وفي الخندق ـ غزوة الأحزاب ـ اتَّخـذ ﷺ موقف المـدافع ، وفرَّق قريشـاً ومن معهـا بـإنشـاب خـلاف بينهم ، كي لا تُـزهـق أرواحٌ من الطَّرفَيْن ، وحين أراد فتـح مكَّـة عنـدمـا نقضت قريش بنـود صلـح الحديبية بتشجيع قبيلـة بكْر ، على قبيلـة خُزاعـة[1] حليفـة النَّبيِّ ﷺ ،

(١) الكامل في التَّاريخ : ٢/١٦١ ، والطَّبري : ٣/٤٢

أغلق وقطع الطَّريق المؤدّية إلى مكَّة كي يعود إلى بلده الَّتي أُخرج منها ، وليفهم قريشاً الَّتيْ تطاولت على نقض صلح الحديبية ولم تَفِ بعهدها استخفافاً وحقداً حينما أرادتِ القبائل العربيَّة أن تدخل في دين الله بالاقتناع والموعظة الحسنة ، وليفهمها أن دعايتها عن محمَّد أنَّه : كاهن ، أو شاعر ، أو مجنون .. قد تكشَّفت أمام العرب الَّذين رأوا في محمَّد رسول الله : عاقلاً ، حكيماً ، دعوته حقٌّ ، ورسالته صدقٌ .

لقد أراد ﷺ دخول مكَّة دون أن تُزهقَ أرواح ، أو تُراقَ دماء ، فعَهد إلى أُمرائه حين دخوله مكَّة : أن لا يقتلوا أحداً إلاَّ مَنْ قَاتَلَهُم[1] .

فرسول الله ﷺ كان حريصاً ألاَّ تسفك دماء ، لأنَّ الدَّم الإنساني كان غالياً عنده ، فهو الحريص على سلامته ، على الرَّغم من شرك صاحبه ووثنيَّته ، لأنَّه ﷺ عارف بمكانة هذه الأُمَّة ـ على جاهليَّتها آنذاك ـ عند الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ☆ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ[2] وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ، [الزُّخرف : ٤٣/٤٣ـ٤٤] .

هذا ما كان في الجزيرة العربيَّة . أمَّا خارجها فماذا نرى ؟

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ١٦٦/٢ ، والطَّبري : ٥٤/٣

(٢) أي شرف لك ولقومكَ .

بلاد الشّام :

« تحوّل البدو المسيحيّون إلى الإسلام بالتّسامح »[1] .

« إنّ هذه القبائل المسيحيّة الّتي اعتنقت الإسلام ، إنّما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حُرّة ، وإنّ العرب المسيحيّين الّذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التّسامح »[2] .

وقال أهل حمص[3] : « يا معشر المسلمين ، أنتم أحبُّ إلينا من الرّوم ، وإن كانوا على ديننا ، وأنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكفُّ عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنّهم ـ أي الرّوم ـ غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » ، وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل .

مصر :

« ولم يضع عمرو [بن العاص] يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملاً من أعمال السّلب والنّهب .

وليس هناك شاهد من الشّواهد يدلُّ على أنّ ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى الاضطهاد ،

(١) الدّعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ص : ٦٩

(٢) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ٧٠

(٣) فتوح البلدان ، البلاذري ، ص : ١٣٧

أو ضغط يقوم على عدم التّسامح من جانب حكّامهم المدنيّين ، بل لقد تحوّل كثير من هؤلاء القِبْط إلى الإسلام قبل أن يتمّ الفتح »[(١)] .

« وفي الحقّ إنّ سياسة التّسامح الدّيني الّتي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الدّيانة المسيحيّة كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد »[(٢)] .

الأندلس :

ذكر (دوزي Dozy) تَسامُحَ العرب في إسبانية مُظْهِراً رحمة الفاتحين ، ويُسْر الضّرائب الّتي فُرِضت ، والّتي كانوا يدفعون أضعافها مضاعفة[(٣)] ، ذكر (دوزي) ذلك بكلّ إعجاب وفخر .

ويقول شاهد عيان (John of Garz) الّذي زار إسبانية حول منتصف القرن العاشر الميلادي : « ويستخدم المسيحيون الّذين كانوا إبّان حكم الإسلام الأماكن المقدّسة وأملاكهم بحريّة »[(٤)] .

---

(١) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ٩٢

(٢) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٥٧

(٣) المرجع السّابق ، ص : ١٧٥ أيضاً .

(٤) John of Garz P. 352

وقال آخر : « ولم يتعرَّض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدِّينيَّة »[1] .

السِّنْدُ :

جاء في كتاب (فتح السِّنْد)[2] :

« ثمَّ أُعطي الأمان للصُّنَّاع والتُّجَّار وعوام النَّاس ، وتركوا بعضاً من أسراهم ، وتشكَّلت محكمة لردّ المظالم[3] .. ثمَّ نودي على العوام المتضرّرين بالحرب ، والَّذين نُهِبَت أموالهم أثناء القتال من عوام النَّاس والصُّنَّاع والتُّجَّار والكسبة الصِّغار ، وتقرَّر إعطاء كلٍّ منهم اثني عشر درهماً »[4] .

ثمَّ أُعطيت الحرِّيَّة الدِّينيَّة لسكَّان المدن الَّتي فُتِحَت .

وتتكرر عبارة :

---

(١) Eulogiu, Men, Sanct Lib. i.30

(٢) فتح السِّند ، أبو المظفَّر محمَّد بن سام ، تحقيق د . سهيل زكَّار ، نشر دار الفكر بيروت .

(٣) المرجع السَّابق ، ص : ٢٤٧٢

(٤) المرجع السَّابق ، ص : ٢٤٧٨

« واجتمع الصُّنَّاع والتُّجَّار والعمَّال وأرسلوا رسالة إلى محمَّد بن القاسم الثَّقفي يطلبون فيها الأمان ، فأعطاهم الأمان »[1] .

ما وراء النَّهر :

« قضيَّة خالدة في تاريخ الإنسانيَّة » :

فتح المسلمون مدينة سمرقند الَّتي عُرِفَت في الإسلام بعد ذلك بأنَّها من مواطن الحضارة الإسلاميَّة ، فتحها سعيد بن عثمان في عهد الأُمويِّين ، ثمَّ فتحها عنوة[2] بعد ذلك قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الوليد بن عبد الملك .

قَبِلَ أهل سمرقند الأمر على مضض ، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ ، وبلغ أهل سمرقند عنه ما ملأ أطراف الدَّولة وجوانبها من الحديث عن عدله ونصرته للحقّ ووفائه وبغضه للظُّلم ، أنابوا عنهم وفداً يَلْقَى الخليفة ، يشكو ما كان من قتيبة معهم .

ولقي الخليفة وفدهم ، فعرضوا الأمر عليه ، وقالوا فيما قالوه إن قتيبة غدر بنا ظلماً ، وأخذ بلادنا ، والأمر إليكَ لترفع عنا ما نزل بنا

(١) المرجع السَّابق ، ص : ٢٧٠٢

(٢) فتحها عنوة شيء ، وفرض الإسلام بالسَّيف شيء آخر .

على يديه ، فتناول الخليفة قرطاساً وقلماً ، وكتب إلى سليمان بن أبي سرح عامله على سمرقند كتاباً قال فيه :

إنَّ أهل سمرقند شكوا ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاجلس لهم قاضياً يقضي بالحقّ في هذه الظُّلامة .

وعاد وفدهم بكتاب الخليفة إلى عامله ، فأحال قضيتهم إلى القاضي جُمَيْع بن حاضر النَّاجي قاضي سمرقند ، فاستمع إلى ظلامتهم ، واستدعى شهودهم عليها ، ثمَّ استدعى شهوداً من الجيش الَّذي حضر الموقعة مع قتيبة فشهدوا بالحقّ ، شهدوا أنَّ قتيبة لم ينبذ إليهم عهدهم ، بل فاجأهم بفتح .

ولمَّا وضح هذا أمام القاضي ، أصدر حكمه في هذه القضيَّة صريحاً لا غموض فيه ، قويّاً مجلجلاً ناطقاً بعدالة الإسلام وسماحته ، قال القاضي : على الجيش الإسلامي الَّذي فتح سمرقند بقيادة قتيبة أن يتأهَّب للخروج منها فوراً ، كذلك يخرج منها المسلمون الَّذين دخلوها بعد الفتح .

لقد كان لهذا الحكم رجَّة في أنحاء سمرقند ، إذ ما كان يتصوَّر أحدٌ أنَّ تعاليم الإسلام تمضي على هذا النَّحو ، وتعطي الحقَّ للقاضي أن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقرَّ فيه .

وأسرع الوالي يخطر الخليفة بالحكم ويطلب مشورته ، فجاء الرَّدُّ بتنفيذ حكم القاضي بحذافيره ، وعندئذٍ أصدر أمره إلى الجيش بالتَّأهُّب للرَّحيل ، وإلى المسلمين المدنيِّين بمغادرة سمرقند .

وبينما هذا يجري على قدم وساق ، والجيش يجمع أسلحته وأمتعته ويفكُّ مخيّماته ، وبينما المسلمون المقيمون بالمدينة يودّعون أهل سمرقند ، ويحزمون أمتعتهم ، ويعلنون بيع أملاكهم فيها ، إذا بمفاجأة تَجِدُّ لم تكن في الحسبان ، فقد جاء وفد يمثِّل أهل سمرقند إلى الوالي ، وأبلغوه أنَّهم تشاوروا فيما بينهم ، بعد هذا الحكم ، الَّذي ما دار بخلدهم لحظة واحدة أنَّ تعاليم الإسلام لا تضيق بمثله ، وأنَّهم ما كانوا يتوقَّعون أنَّ هناك قاضياً يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلاء عن بلد فتحه ، وأنَّهم ما كانوا يتصوَّرون أنَّ القاضي سيهمل في القضيَّة عصبيَّته لقومه ، ولا يعيرها اهتماماً ولا وزناً ، وأنَّهم استبعدوا أن يأمر الخليفة بتنفيذ الحكم كما صدر مع انصياع الجميع له ، دون أن يكون هناك حسابٌ لما يترتَّب على تنفيذه من عنت لمن صدر في شأنهم .

أمام هذا ، وأمام حسن المعاملة الَّتي وجدوها من إخوانهم المسلمين المقيمين بالبلد حال إقامتهم فيها ، لا يسعهم إلاَّ أن يعلنوا عن تنازلهم عن حقِّهم ، والمطالبة ببقاء الحال على ما هي عليه ، لأنَّهم لن يخشوا بعد

اليوم ضرّاً ينالهم ، وإزاء هذه الرَّغبة الصَّادقة من أهل سمرقند ، أُمِرَ الجيش بالبقاء ، وأُمِرَ المسلمون بعدم الخروج ، وكانت فرحة مزدوجة من الجانبين .

وكانت هذه القضيَّة سبباً في إسلام كثير من أهل سمرقند ، وانضوائهم تحت راية الإسلام ، والإخلاص لتعاليمه ، والعمل على نشرها ، والاستمساك بما أمرت به ، والاعتصام بحبل الله المتين ، حتَّى غدت سمرقند بعد مركزاً للتَّزوُّد بزاد المعرفة من علمائها[1] .

وبعد فتح القسطنطينيَّة :

« ومن أُولى الخطوات الَّتي اتَّخذها محمَّد الثَّاني (محمَّد الفاتح) بعد سقوط القسطنطينيَّة وإعادة إقرار النِّظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيِّين ، بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقيَّة ، فحرَّم اضطهاد المسيحيِّين ، تحريماً قاطعاً ، ومنح البَطْريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حقَّ التَّمتُّع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات الَّتي كانوا يتمتَّعون بها في العهد السَّابق ، وقد تسلَّم جنَّاديوس أوَّل بَطْريق بعد الفتح العثماني من يد السُّلطان نفسه عصا الأُسقفيَّة الَّتي كانت رمز هذا المنصب ، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية[2] .

(١) الطَّبري : ٥٦٧/٦

(٢) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٧٠ ـ ١٧١ ، وورد : ماإن استقرَّ محمَّد الفاتح في عاصمته =

ولقي الفاتحون « في بقاع كثيرة من المملكة ـ البيزنطيَّة ـ ترحيباً من جانب الإغريق ، فقد عدُّوهم مخلِّصين لهم من الحكم الظَّالم المستبد ، حكم الفرنجة وأهل البندقيَّة ، وقد صيَّروا ـ أي الفرنجة ـ الشَّعب في حالة من العبوديَّة يرثى لها »[١] .

ووضَّح كثير من المؤرِّخين حالة دولة بيزنطة قبل الفتح ، كقولهم :

« إنَّ أيَّة دولة لا تخاف القانون تشبه فَرَساً من غير زمام ، لقد سمح قسطنطين وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشَّعب ، فلم تعد في محاكمهم عدالة ، ولا في قلوبهم شجاعة ، وجمع القضاة الثَّروات من دموع الأبرياء ودمائهم »[٢] .

= الجديدة (القسطنطينيَّة) حتَّى أعلن أنَّه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيِّين ، بل إنَّه يضمن لهم حرِّيَّة دينهم ، وحفظ أملاكهم ، فرجع من كان قد نزح عن العاصمة ، ولمَّا انتخبوا (جورج سكولاريوس) بطريقاً لهم ، احتفل محمَّد الفاتح بتنصيبه بالأُبَّهة نفسها والنِّظام نفسه الَّذي كان يعمل للبطارقة أيَّام قياصرة الرُّوم البيزنطيِّين ، وأعطاه حرساً من جنده الانكشاريَّة ، ومنحه حقَّ الحكم في القضايا المدنيَّة والجنائيَّة بكافَّة أنواعها المختصَّة بالرُّوم ، وعيَّن معه مجلساً مشكَّلاً من أكبر موظَّفي الكنيسة ، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسس .

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٧٢ ، عن رحَّالة معاصر لفترة الفتح وهو :
The Travels of Martin Baumgarten, P.373

(٢) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٧٣

ولكن الفاتحين المسلمين بعد هذه الصُّورة القاتمة : « استطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصَّارمة أن ينشروا الأمن والنِّظام في المقاطعات كلِّها ، ووجدنا تنظيماً رائعاً في الشُّؤون المدنيَّة والقضائيَّة »[١] .

وتقبل كثيرون جداً الإسلام واعتنقوه ، لماذا ؟

« لقد أصبح الدِّين الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطَّبيعي لأفراد الكنيسة الشَّرقيَّة »[٢] .

وممَّا يذكر أنَّ حرباً وقعت بين العثمانيِّين والمجريِّين ، فبحث جورج برانكوفتش عن جون هنيادي وسأله : ماذا تصنع لو انتصرت ؟ فأجاب : أؤسِّس العقيدة الرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة ، ثمَّ بحث عن السُّلطان العثماني وسأله : ماذا تصنع لديننا لو انتصرت ؟ فأجاب :

« أُقيم كنيسة إلى جانب كلِّ مسجد ، وأدع مطلق الحرِّيَّة لكلِّ فردٍ في أن يصلِّي في أيها شاء »[٣] .

☆ ☆ ☆

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٧٤

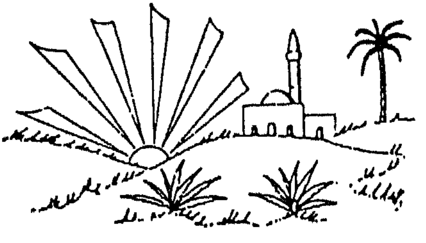
(٢) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٨٧

(٣) المرجع السَّابق ، ص : ٢٢٣ ، عن :

Enripue Dupuy De Lome: Eschavosy. Turgufa PP. 17-18 «Madrid 1877».

ويطول الحديث عن انتشار الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، والإقناع والفكر ، فبالتَّسامح وصل الإسلام إلى سيبرية ، وجنوبي الهند ، وسيلان ، وجزر مالديف (Maldives) ولكديف في المحيط الهندي ، وإلى التِّيبت ، وإلى سواحل الصِّين ، وإلى الفيليبِّين وجزر إندونيسية وشبه جزيرة الملايو .

وبالتَّسامح والدَّعوة وحدها وصل الإسلام أيضاً أواسِطَ إفريقية .



ماذا قال المسيحيون

عن معاملة الفاتحين لهم ؟

قال البطريق النَّسطوري (يشوع باف الثَّالث) في رسالة بعثها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فَارِس :

« إنَّ العرب الَّذين منحهم الله سلطانَ الدُّنيا ، يشاهدون ماأنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حقَّ العِلْم ، ومع ذلك فهم لايحاربون العقيدة المسيحيَّة ، بل على العكس ، يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقدّيسي الرَّب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار » .

ويعلّق توماس أرنولد على هذه الرّسالة بقوله :

« تحمل هذه الرّسالة الدَّليل السَّاطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدِّين الجديد »[١] .

وتقول المستشرقة الإيطاليَّة (لورا ڤيشيا فاغليري) عن روعة انتشار الإسلام :

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٠٢

« أيَّة قوة عجيبة تكمن في هذا الدّين ؟

أيّة قوّة داخليَّة من قوى الإقناع تنصهر به ؟

ومن أيِّ غور سحيق من أغوار النَّفس الإنسانيَّة ينتزع نَداوَةَ استجابة مزلزلة ؟ »[1] .

ووصف الكونت هنري دي كاستري المسلمين بقوله :

فلم يقتلوا أُمَّة أبت الإسلام ،

ولم يُكْرَه أحدٌ على الإسلام بالسَّيف ، ولا باللِّسان ، بل دخل القلوب عن شوق واختيار ، وكان نتيجة ما أُودع في القرآن من مواهب التَّأثير والأخذ بالألباب[2] .

☆ ☆ ☆

(١) دفاع عن الإسلام ، ص : ٤٠

(٢) الإسلام خواطر وسوانح ، ص : ٣٥

كيف انتشرت الشرائع الأخرى ؟

البوذيَّة[1] :

لا شأن لها قبل (آزوكا) الَّذي اعتنقها واهتمَّ بنشرها خارج مملكته حتَّى وصل سيلان وبورما ، فآزوكا تبنَّاها وأخذ بنشرها حتَّى شملت جنوب شرقي آسية[2] .

المزدكيَّة[3] :

لم يكن لها شأنٌ قبل (قباذ) ، فهذا الملك الفارسي تبنَّى هذه العقيدة ، وحاول فرضها جبراً على شعبه كُلِّه ، وحتَّى المناذرة العرب التَّابعين له في العراق[4] ، وبزوال سلطان قباذ ضعف شأن المزدكيَّة .

الزرادشتيَّة[5] :

---

(١) بوذا (بدها غوتَما) : حوالي : ٥٦٦ - ٤٨٦ ق.م ، مؤسّس الدّيانة البوذيَّة .

(٢) تاريخ الحضارة ، لجورج حداد .

(٣) مَزدَك ، داعٍ فارسي ، أراد شيوع الأموال والنّساء .

(٤) تاريخ الأُمم الإسلاميَّة ، الشَّيخ محمَّد الخضري ، والملل والنّحل ٨٨/٢

(٥) زرادشت (ت حوالي ٥٨٣ ق.م) أصله من أذربيجان .

لم تنتشر قبل (دارا) كسرى الفرس ، الَّذي نشرها حرباً بعد قرن من وفاة زرادشت ، حتَّى وصل بها أثينة عاصمة اليونانيِّين القدماء .

الكونفوشيوسيَّة[1] :

ما انتشرت تعاليمها إلاَّ لاستخدام صاحبها لمركزه رئيساً للوزراء في مقاطعة (لُو) الصّينيَّة .

المسيحيَّة :

أوَّلاً وقبل كلّ شيء :

ليست المسيحيَّة الَّتي أنزلها الله على نبيِّه عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام ، هي الَّتي شرعت للنَّصارى في العصور الأُولى والوسطى تعاليم همجيَّة متعطّشة إلى سفك الدّماء ، وإهلاك النَّاس .

والمسيحيَّة لم تكن لتنتشر لولا سلطة قسطنطين الَّذي أراد أن يكون سيِّدها ، فاستغلَّ الخلافات الدَّاخليَّة للكنيسة ، وأصدر مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ م ، الَّذي اعترف بموجبه بالمسيحيَّة ، وأهال عليها أُعطياته .

---

(١) كونفوشيوس : (٥٥١ ـ ٤٧٨ ق.م) ، اسمه في الصّين : Kung Fu Tzu

ثانياً :

« ظلّ شارلمان يحارب السّكسونيّين ثلاثاً وثلاثين سنة ، كلها عنف ووحشيّة ، حتّى أخضعهم وحوّلهم قسراً إلى الدّيانة المسيحيّة ، كما تطلّب ثماني رحلات حسوماً متتابعة ، حتّى هزم الآفاريّين الّذين قيل عن أسلاب كنوزهم المكدّسة إنّها رفعت شارلمان من عالي الغنى والثّروة ، إلى شاهق الفيض والوفرة »[1] .

« فرض شارلمان على السّكسونيّين الوثنيّين النّصرانيّة بالسّيف ، ولمّا ضعف السّكسونيّون بعد معارك كثيرة وحروب عديدة ، اعتنقوا المسيحيّة آخر الأمر ، وخضعوا لحكم الفرنجة .

وكان فرض هذا الدّين على السّكسونيّين على يد القدّيس ليودجر Liudger وويليهاد Willehad »[2] .

« ولقد أُكرهت مِصْرُ على انتحال النّصرانيّة ، ولكنّها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الّذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي »[3] .

---

(١) تاريخ أوربة العصور الوسطى ، فيشر : ٦١/١

(٢) Monumenta Cermaniac Historica G.H Pexlr

(٣) حضارة العربُ ، ص : ٣٢٦

وفي الدنمارك : نشر الملك (كنوت Cnut) المسيحيَّة في ممتلكاته بالقوَّة والإرهاب .

« ومن ثَمَّ أخضع الأُمم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن اشتبك مع الممالك المتبربرة في حروب طاحنة مدفوعاً بما كان يضطرم في نفسه من الشَّوق إلى نشر العقيدة »[1].

وفي روسية :

نُشِرَت الدَّعوة المسيحيَّة على يد جماعة اسمها ـ تمعَّن باسمها ـ :

« إخوان السَّيف »[2] Bretheren of The Sword .

« أمَّا كيف كان دخول المسيحيَّة روسية ، فيبدو أوَّلاً أنَّه تمَّ على يد فلاديمير دوق كييف [٩٨٥ ـ ١٠١٥ م] ، وهو سليل رورك ، ويضرب به المثل في الوحشيَّة والشَّهوانيَّة ، إذ جاء إلى الدُّوقيَّة فوق جُثَّة آخر إخوته ، واقتنى من النِّسوة ثلاثة آلاف وخمس مئة[3] ، على أنَّ هذا وذاك

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٣٠

(٢) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٣١

(٣) في (Camb, Med. Hist, ivP.208) ورد أنَّ عدد أولئك النِّسوة اللاَّتي اختارهن فلاديمير لنفسه ، بالإضافة إلى خمس زوجات شرعيَّات ، لم يكن سوى ثلاث مئة ، وهو أقرب إلى الاعتدال .

كله ، لم يمنع من تسجيله قنديساً في عداد القدّيسين بالكنيسة الأرثوذكسيَّة البيزنطيَّة ، لأنّه الرَّجل الَّذي جعل من كييف مدينة مسيحيَّة ، وجعل من الرُّوسيّين شعباً على دين المسيح (والمسيح زعيم بغفران ذنوبه) ، وقد أمر فلاديمير بتعميد أهل دوقيَّة روسية كلهم مرَّة واحدة في مياه نهر الدنيبر »[1] .

وفي النَّروج :

قام الملك (أُولاف ترايجفيسون) بذبح هؤلاء الَّذين أبوا الدُّخول في المسيحيَّة ، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم ، وبهذه الوسائل نشر المسيحيَّة في (فيكن) القسم الجنوبي من النَّروج بأسرها »[2] .

وجاء في كتاب (صلاح الدّين الأيُّوبي) قصَّة الصّراع بين الشَّرق والغرب خلال القَرْنَيْن الحادي عشر والثَّاني عشر ، لقدري قلعجي ما يلي :

« سَمَل باسيليوس الثَّاني ناشر المسيحيَّة في روسية أعْيُنَ (١٥ ألف)

---

(١) تاريخ أُوربّة في العصور الوسطى ، ص : ٤٠٧

(٢) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ٣٢

من أسرى البلغار ، إلاَّ مئـة وخمسين منهم ، أبقى لكلّ واحـد منهم عينـاً واحدة ليقودوا إخوانهم في عودتهم لبلادهم .

وفي أمريكا :

إبـادة للهنود الْحُمْر ، وهـذا كان أيضـاً نصيب حْضـارة الأنتيـل ، وحضارة المايا ، وحضارة الأزتيك ، وحضارة الأنكا في بيرو .

وهناك مثالٌ حيٌّ على ما رافق الكشوفات الجغرافيَّة الأُوربيَّة :

نشرت صحيفـة الحيـاة (البيروتيّـة) صورة لمـا رافـق استكشـاف جزيرة (هاييتي) على يد الإسبان ، كانت المادّة العلميَّة تحتها ما يلي :

« وانشغل ضُبَّاطه وخلفـاؤه أوَّل الأمر ـ خلفـاء المستكشف قـائـد الحملـة ـ بـاستكشـاف جزيرة هـاييتي (إسبـانيولا) واحتلالهـا ، وكانت ماتزال في داخلها أرض شاسعة مجهولـة ، وقـد تولَّى هـذه المهمَّـة كلٌّ من دييغو فلاسكيز وبانفيلو دونـارفيز ، فـأبـديـا من ضروب الوحشيَّـة مـالم يسبق لـه مثيل ، متفنّنين في تعـذيب سكّـان الجـزيرة بقطـع أنـاملهم ، وفقء عيـونهم ، وصبِّ الـزَّيت المغلي ، والرَّصـاص المـذاب في جراحهم ، أو بـإحراقهم أحيـاء على مرأى من الأسرى ، ليعترفوا بمخـابئ الـذَّهب ، أو ليهتدوا إلى الدِّين .

وقد حاول أحد الرُّهبان إقناع الزَّعيم (هايتهاي) باعتناق الدِّين ، وكان مربوطاً إلى المحرقة ، فقال له إنَّه إذا تعمَّد يذهب إلى الجنَّة ، فسأل الزَّعيم الهندي : وهل في الجنَّة إسبانيُّون ؟ فأجابه الرَّاهب : طبعاً ، ما داموا يعبدون الإله الحقّ !

فما كان من الزَّعيم الهندي إلاَّ أن قال : إذاً ، أنا لا أُريد أن أذهب إلى مكان أُصادف فيه أبناء هذه الأُمَّة المتوحّشة »[1] .

ليس هذا بمعلوم لنا فقط ، بل نشرت Cuba Internacional Joulio 1972 تحت عنوان LA HISTORIY ، ص : ٦٠ ، صورة لمبشّر بيده صليب ، وزعيم مقيَّد إلى سارية ، وقد غُطّي حتَّى منتصفه بحزم الحطب والقش لحرقه ، أمَّا المبشّر فرافع الصَّليب في وجهه يدعوه إلى المسيحيَّة قبل موته .

كلُّ هذا يرتكب باسم السَّيِّد المسيح عليه السَّلام ، فكولومبس أراد من رحلاته : الذَّهب ، ونشر المسيحيَّة ، لقد أرسل رسالة إلى البابا الكسندر السَّادس في شباط (فبراير) ١٥٠٢ م قال فيها : إنَّ رحلتي القادمة سوف تكون لمجد الثَّالوث المقدَّس ، ولمجد الدِّين المسيحي

---

(١) الحياة : العدد ٢٤٩٤ ، الأربعاء ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٥٤ م .



راهب يقنع الزعيم (هايتهاي) باعتناق الدين ، وكان مربوطاً إلى المحرقة ، فقال له : إنه إذا تعمد يذهب إلى الجنة ، فسأله الزعيم الهندي : وهل في هذه الجنة إسبانيون ؟ فأجابه الراهب : طبعاً ، ماداموا يعبدون الإله الحق ، فما كان من الزعيم الهندي إلا قال : « إذن ، أنا لا أريد أن أذهب إلى مكان أصادف فيه أبناء هذه الأمة المتوحشة »

[الحياة : العدد ٢٤٩٤ ، ١٩٥٤/٦/٢٣]

المقـدَّس ، ومـا أفعلـه ، عمل جليـل من شـأنـه زيـادة مجـد ونمـو الـدِّين المسيحي المقدَّس[1] .

لما سبق يقول القس فرانزغريس : « إنَّ تـاريخ الأُمم النَّصرانيَّـة ، وأكثر من هذا ، تاريخ الكنيسـة بـالـذَّات ، مضرَّج بـالـدِّمـاء وملطَّخ ، ولربَّما أكثر تضرُّجاً ووحشيَّـة من أي شعب وثني آخر من العـالم القـديم ، إنَّ أُمماً ذوات حضارات زاهية باهرة قد أُزيلت وأُبيدت ومُحيَت ببساطـة وسهولة من عالم الوجود ، وكلُّ ذلك باسم الدِّين النَّصراني »[2] .

محاكم التَّفتيش[3] :

The Inquisition

بـدأت بصرع غَرْنـاطـة[4] مرحلـة مـؤلمـة مـؤسفـة لشعب مُسْلِم مغلوب ، وعدوٍّ خـائنٍ نقض شروط المعـاهـدة الَّتي وُقِّعت في ٢٥ تشرين

---

(١) فتح أمريكا (مسألة الآخر) ، ص : ١٦

(٢) تبـدد أوهـام قسيس ، ص : ٤٠٢ و ٣٩٢ ، وانظر كتـاب (أسرار الفـاتيكان ، قضيَّـة ليـدل) ترجمـة تحسين حجـازي ، دار التَّضـامن ـ بيروت ١٩٩٠ م ، حيث الفضـائـح المعاصرة ، من (مافيا) أسلحة ، وأسهم وسندات مزوَّرة !!

(٣) محـاكم التَّفتيش (أو محـاكم التَّحقيق) ، شُكِّلت في إسبـانيـة بمرسوم بـابـوي في تشرين الثَّاني (نوفمبر) ، التموز سنة ١٤٧٨ م .

(٤) في ٢ كانون الثَّاني (يناير) ، سنة ١٤٩٢ م .

الثّاني (نوفمبر) ١٤٩١ م ، بين أبي عبد الله الصّغير[١] وفرديناند[٢] ، والّتي اشترط المسلمون أن يوافق البابا على الالتزام والوفاء بالشّروط ، إذا مكّنوا النّصارى من غَرْناطة والمعاقل والحصون ، ويقسم على ذلك ، على عادة النّصارى في العهود .

وممّا جاء في معاهدة تسليم غَرْناطة :

« .. تأمين الصّغير والكبير في النّفس والأهل والمال وإبقاء النّاس في أماكنهم ودورهم ورِبَاعهم[٣] وعقارهم ، وإقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت ، والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النّصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً .. وأن لا يُؤخذ أحد بِذَنْب غيره ، وأن لا يُقْهَر مَنْ أسلم على الرُّجوع للنّصارى ودينهم .. ولا ينظر نصراني على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير في بلاد النّصارى آمناً في نفسه وماله .. ولا يُمْنَع مؤذّن ولا مُصَلٍّ ولا صائم ولا غيره من أُمور دينه ..

---

(١) آخر ملوك غَرْناطة .

(٢) فرديناند ملك أراغون وقشتالة ، زوج إيزابيلا ، ١٤٦٩ م .

(٣) الرَّبْعُ : المنزل والدّار بعينها ، والوَطَنُ متى كان ، وبأيٍّ مكان كان ، وجمعه أَرْبُعٌ ورباعٌ ورُبُوعٌ وأرْباع ، [اللّسان : ربع] .

وأن يوافق على كلّ الشُّروط صاحب رومة ويضع خطّ يده »[(١)] .

ومع قَسَمِ فردينانـد وإيـزابيـلا الرَّسمي بـالله ، أنَّ جميـع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرِّيَّـة في العمـل في أراضيهم ، أو حيث شـاؤوا وأن يحتفظوا بشعـائر دينهم ومسـاجـدهم كما كانـوا ، وأن يسمـح لمن شـاء منهم بالهجرة إلى المغرب ، ولكن الأيمان والعهود لم تكن عنـد مَلِكَي النَّصـارى سوى ستار للخيانة والغدر ، وإنَّ هذه الشُّروط الخلاَّبة نُقِضَت جميعاً بعد تسليم غَرْناطـة ، ولم يتردَّد المـؤرِّخ الغربي (بروسكـوت Prescott) أن يصفهـا بـأنهـا أفضـل مـادَّة لتقـدير مـدى الغـدر الإسبـاني فيما تـلا من العصور[(٢)] .

لقد نقض الإسبان شروط المعاهـدة بنـداً بنـداً ، فمنعوا المسلمين من النُّطق بالعربيَّة في الأنـدلس ، وفرضوا إجلاء المسلمين الموجودين فيهـا ، وحرق من بقي منهم ، وزاد الكردينال (أكزيمينيس) على ذلك ، فأمر بجمع كلّ مـا يستطـاع جمعـه من الكتب العربيَّـة ، ونُظمت أكـداسـاً في أكبر ساحات المدينة ، وفيها علوم لا تُقَدَّر بثمن ، بل هي خلاصة مـا بقي من تراث التَّفكير الإنساني ، وأحرقها .

---

(١) نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب ، ٦/٢٧٧ ـ ٢٧٨

(٢) مصرع غَرْناطة ، ص : ٨٥

يقول غوستاف لوبون متحسراً على فعلة الكردينال (أكزيمينيس) :

« ظنَّ رئيس الأساقفة الإسباني (أكزيمينيس) أنَّه بحرقه مؤخَّراً ما قدر على جمعه من كتب أعداء دينه العرب ، أي ثمانين ألف كتاب ، مَحَا ذكرهم من صفحات التَّاريخ إلى الأبد ، فما دَرَى أن ما تركه العرب من الآثار الَّتي تملأ بلاد إسبانيَّة يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد »[1] .

ولقد هدفت محاكم التَّفتيش إلى تنصير المسلمين بإشراف السُّلطات الكنسيَّة ، وبأشدّ وسائل العنف ، ولم تكن العهود الَّتي قُطِعَت للمسلمين لتحول دون النَّزعة الصَّليبيَّة ، الَّتي أسبغت على سياسة إسبانية الغادرة ثوب الدِّين والورع .

ولما قاوم المسلمون التَّنصير وأبَوْه ، عُدُّوا ثوَّاراً متَّصلين بالمغرب والقاهرة والقسطنطينيَّة ، وبدأ القتل فيهم ، فثاروا في غَرْناطة وريفها[2]، فُمزِّقوا بلا رأفة ، وفي ٢٠ تموز (يوليو) ١٥٠١ م ، أصدر الملَكان الكاثوليكيَّان أمراً خلاصته :

« إنَّه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غَرْنَاطة من

---

(١) حضارة العرب ، ص : ٣٣٩

(٢) كالبيازين والبشرات .

الكَفَرة (!) فإنَّه يحظَّر وجود المسلمين فيها .. ويعاقب المخالفون بالموت ، أو مصادرة الأموال [1] .

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه ، وأظهر تنصُّره فبدأت محاكم التَّفتيش نشاطها الوحشي المروِّع ، فحين التَّبليغ عن مسلم أنَّه يخفي إسلامه ، يُزَجُّ به في السِّجن ، وكانت السُّجون رهيبة : عميقة ، مظلمة ، رطبة ، تغصُّ بالحشرات والجرذان .. ويُصَفَّد فيها المتَّهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم ، لتُدْفَعَ نفقات سجنهم .

ومن أنواع التَّعذيب : إملاء البطن بالماء حتَّى الاختناق ، وربط يَدَي المتَّهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتَيْه وبطنه ، ورفعه وخفضه معلَّقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقالٍ تُرْبط معه .

والأسياخ المحمَّاة .

وسحق العظام بآلات ضاغطة .

تمزيق الأرجل ، وفسخ الفك ..

---

(١) مصرع غَرْناطة ، ص : ٩٩

ولا يـوقف التَّعـذيب إلاَّ إذا رأى الطَّبيب حيـاة المتَّهم في خطر ، ولكن التَّعذيب يُسْتأنف متى عاد المتَّهم إلى رشده ، أو جفَّ دمه[1] .

وقرار المحكمـة لا يتم إلاَّ حين التَّنفيـذ في سـاحـة البلـدة ، وهو إمـا سجن مـؤبَّـد ، أو مصـادرة أمـوال وتهجير ، أو إعـدام حرقـاً وهـو الحكم الغالب عند الأحبار الَّـذين يشهـدون مع المَلِكَيْن الكاثوليكِيَّين حفلات الإحراق .

وهذه صورة من محاكمات التَّفتيش[2] :

قُبِضَ على مسلم وسيق إلى المحاكمة ، وكان ثبات ذلـك الرَّجل أمـام هيئة المحكمة مما دَعا إلى زيادة حفيظتهم عليه ، والمبالغة في تعذيبه .

جيء بـذلـك الرَّجـل أمـام المحكمـة ، فقـال رئيس المحكمــة لجنـود التَّفتيش : ضعوا الحديد في أصابعه الآن وقدِّموه إلينا ، ففعلوا ، ثمَّ جيء بذلك المسكين أمام المحكمة وقد أعياه الألم ، فسقـط مغشيّـاً عليـه ، فقـال الرَّئيس : أوقفوه ، فـأجـاب أحـد الحرَّاس : إنَّـه لا يقوى على الوقـوف ، فقال رئيس المحكمة : إذاً فضعوه في التَّابوت فإنَّه يقف فيه .

---

(١) ومن أنواع التَّعذيب : الدَّفن على قيد الحياة ، انظر فصل : (طرق التَّعذيب في محاكم التَّفتيش) ، ص : ٩١ ، من كتاب : (محاكم التَّفتيش) .

(٢) عن كتـاب (محـاكم التَّفتيش) ، د . علي مظهر ، طبعـة ١٩٤٧ ، ص : ٨٢ ، تحت عنوان : (محاكمة مسلم من بقايا المسلمين ، وكيفية استجوابه أمام محكمة التَّفتيش) .

فوضعوه في التّابوت ، وهو صندوق مربّع فيه مسامير من الدّاخل ، فاضطر المعذّب أن يقف رغم ما به من إعياء وضعف ، ثمّ رفعوا الكمّامة الّتي كانت على فمه ليتمكّن من الإجابة على الأسئلة ، وتنفّس المسكين الصُّعداء طويلاً ، أمر الرّئيس بأن يسقوه قليلاً من الخمر ، فلمّا شرب قليلاً منها تفتّحت عيناه ، وحدث عنده شيء من الانتعاش ، وفحصه الطّبيب حتّى علم أنّه قادر على الوقوف والاستجواب ، فأبلغ ذلك هيئة المحكمة ، فوجّه إليه الرّئيس الأسئلة الآتية :

قال الرّئيس : ماسمك ؟ فأجاب : أنا مسلم عربي .

الرّئيس : كلا ، بل اذكر اسمك المسيحي الجديد ، فأجاب : صموئيل فرناندس .

الرّئيس : قل صدقاً : كم عمرك ؟ فأجاب : ثلاث وثلاثون سنة مثل عمر المسيح .

الرّئيس : إذاً أنت مستعد للتّضحية ؟ فأجاب : بإذن الله .

الرّئيس : إذاً قل : من هو إلهك ؟ فأجاب : هو إلهكم نفسه .

الرّئيس : وما اسمه ؟ فأجاب المسلم : الله في سماء ملكوته .

الرّئيس : بل قل معي : يسوع المسيح ، فأجاب وهو يرتعد : يسوع المسيح .

الرّئيس : يظهر عليك أنّك تأثّرت من ذكر هذا الاسم أليس كذلك ؟

قال الرّجل مجيباً : أجل .

الرّئيس : وما نوع ذلك التّأثر ؟ فأجاب : تأثر داخلي .

الرّئيس : وماذا قال لك هذا الصّوت الدّاخلي ؟

الرّجل : لا أدري ، فإنّي الآن لا أدري ما أقول .

الرّئيس : قل ما فكّرت فيه بصوتٍ مسموع .

الرّجل : لا أقدر على الكلام ، لأنّي متألّم جدّاً من الضّغط على صدري ، والكلام لا يكون حسب الأمر ، بل حسب الاستطاعة .

الرّئيس : سننظر ذلك جيّداً جدّاً .

ونظر الكاتب إلى الرّئيس مستفهماً ، فقال الرّئيس : أظن أنّ ضرب وجهه بالسّوط يُمكّنه من الكلام .

وسرعان ما جذبه أحد رجال التّعذيب ، وجعل يجلده على وجهه

بجلدة سميكة مبلّلة بالماء ، فاحمرَّ جلد وجهه ، وكاد يخرج منه الدَّم ، وجعل يتلوّى من الألم ، فقال له كاهن : تعالَ يا صموئيل ، تقدّم واعترف أمامي بكلّ خطاياك ، وقل لي : بماذا تفكّر الآن ؟ قلِ الحقّ قبلما يحلُّ بك القصاص ، تقدَّم يا بنيّ ، الحقُّ بيدك يا محمَّد ، لقد كان هذا اسمك قبل اعتناقك المسيحيَّة ، فلماذا سُمّيت صموئيل ، ولم تختر اسم قدّيس مسيحي كبطرس أو بولص ؟ ثمَّ نظر إلى الكاتب وقال اكتب : أين ولدت ؟ فأجاب : في طنجة .

الكاهن : أإسباني أنت ؟ فأجاب : كنتُ إسبانياً .

الكاهن : ولماذا تقول كنتُ ؟ فأجاب : أقول هذا لأني لست بإسباني لكي أظلّ إسبانياً إلى الأبد .

الكاهن : وأبوك ؟ فأجاب : ليس لي أبٌ ، فإنّه قد مات .

الكاهن : وأمُّك ؟ فأجاب : ماتت أيضاً .

الكاهن : وأين ماتا ؟ فأجاب : في سجون ديوان التّفتيش .

الكاهن : أحرقاً ؟ فأجاب : لا بل تعذيباً حتّى تهرّأت أجسادهما ، فماتا من شِدّة العذاب .

الكاهن : وبماذا اتُّهما ؟ فأجاب : لقد كانا بريئَيْن .

الكاهن : هل لك إخوة ؟ فأجاب : أظنُّ ذلك .

الكاهن : كيف تظنُّ ؟ أين إخوتك ؟ وأين يقيمون ؟

الرَّجل : بل قل أوَّلاً : أين ماتوا ؟ وأين قبورهم ؟

الكاهن : يظهر أنَّك تريد أن ينفد صبرنا معك ، فسنبدأ بتعذيبك .

الرَّجل : يسوءني هنا .

الكاهن : إذاً أنت لا تريد أن تدلَّنا على البقيَّة الباقية من إخوتك ، ولا عن مكان إقامتهم ! إنَّ الدّيوان المقدَّس لا يخفى عليه أنَّ لك إخوة هم على قيد الحياة ، وهم يصلُّون في مساجد خفيّة ، ألا تعلم أين هم ؟!

الرَّجل : لا أعلم .

الكاهن : لمَّا صدر الأمر بسجنهم هربوا ، أفلا تعلم إلى أين ؟

الرَّجل : لا .

الكاهن : تذكَّر جيِّداً علَّك تعلم .

الرَّجل : كيف يمكنني أن أتذكَّر وأنا مضطرب الفكر ضائع العقل ؟

الكاهن : يجب أن تساعدنا على معرفة مَقرّهم حتّى نخلّص نفوسهم .

الرَّجل : على غرار ما تفعلون معي الآن .

الكاهن : أنت تسكن مع امرأة ، فمن تكون هذه ؟ فأجاب : زوجي .

الكاهن : كيف يمكنك ادّعاء هذا ؟

الرَّجل : هل تريد أن يكون الأمر كذلك ؟

الكاهن : علمنا أنّها مسيحيّة ، وأنت بهذا العمل تخالف آداب ديننا المسيحي ، وتنبذ العفاف ، فيجب عليك أن تسلّم زوجك للدّيوان المقدّس .

الرَّجل : هل هذا هو العفاف والدِّين عندكم ؟

الكاهن : نحن لا نجادلك بل نأمرك .

الرَّجل : إذا كنتم تأمرونني ، فأولى بكم أن تقتلوني ، وهذا كلُّ ما يمكن أن تفعلوه ، وعندئذٍ سوف تصلّي زوجتي من أجلي .

الكاهن : ويلك ياشقي ، لاتزال مُصرّاً على إنكارك ؟ أصلح

هفواتك وخطأك يا هذا ، وإلاّ فإنّك سوف تدفع لعنادك ثمناً باهظاً ، والآن فلنتم أعمالنا ،.أين إخوتك ؟ وأين زوجك ؟

الرَّجل : هم في مكان أمين .

الكاهن : ألا تريد أن تعترف بأكثر من هذا ؟

الرَّجل : إنِّي أعترف إلى الله خالقي فحسب ، أنتم تعذِّبونني والله يعلم أنِّي بريء .

الكاهن : سوف تساق إلى التَّعذيب الآن ، فالأَوْلى لك الإقرار .

الرَّجل : لا يهمُّني العذاب ، فإنَّ جسمي مخدَّر ولا يشعر .

الكاهن : إذا لم تُجب على ما سألناك الآن ، فسوف تُسْقَى الماء رغم أنفك ، يدفع إليكَ من حلقك حتَّى يقضي عليك .

الرَّجل : لقد احترقت رجلاي أوَّلاً بناركم ، فلم أمُت حتَّى الآن .

فقال أحد القُسُس ، وهو يتصنَّع الرِّقَّة والعطف عليه ، بصوت متكلِّف :

اعلم يا بنيّ أنّنا لا نرمي من وراء تعذيبك إلاَّ إلى الإقرار عن بقيَّة أهلك الَّذين تحبُّهم ، وبذا تُنْجي نفسك ونفوسهم ، ونصعد بكم إلى السَّماء .

فأجاب الرَّجل : إذا صعدنا نحن إلى السَّماء ، فمن يهوي بكم إلى الجحيم وبئس القرار ؟

وعندئذٍ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذِّبين المرتدين الثِّياب السُّود ، الواقفين أمام آلات التَّعذيب ، فهجموا عليه ، وأخذَ بعضهم يضع الحبالَ في يديه وصدره معاً ، ويلفُّها لفّاً ، وآخرون ربطوا رجليه بحبل دقيق ، ثمَّ وضعوه على مائدة خاصَّة ، وأعادوا ربطه عليها ربطاً وثيقاً ، وتقدَّم أحَدُ هؤلاء المعذِّبين وهو يحمل جرَّة ملأى بالماء ، وتقدَّم آخر وفي يده قُمْع ، فقال الكاهن الموكَّل بعظة الخاطئين والصَّلاة لأجلهم :

والآن ياصموئيل ، لماذا تضطرنا يابنيَّ إلى تعذيبك ، وإحداث هذه الآلام لك ، مادمت قادراً على الخلاص من هذا كله ، إذا ماقلت لنا أين إخوتك ؟ وأين زوجك ؟

فأجاب الرَّجل : لا يمكنني أن أقول لكم شيئاً عنهم ، لأنِّي قد وعدتهم وأقسمت لهم بأن لاأخونهم ولا أسلِّمهم لديوان التَّفتيش .

فقال الكاهن : ولكنَّنا لانعتقد أنَّهم يرضون لك هذه الحال ، وهذا العذاب الأليم .. إنَّ هذا السُّكوت لا يُعَدُّ أمانة الآن ، بل يُعَدُّ جنوناً .. قل قبل أن يبدأ الرِّجال بتعذيبك .

الرَّجل : إنَّني أشكر لكم إذا ما قتلتموني مرَّة واحدة .

الكاهن : دع عنك هذا العناد يا رجل ، واعلم جيِّداً أنَّك سوف تموت دون أن يعلموا بأنَّك متَّ فداء لهم ، والمحكمة سوف تقبض عليهم إن عاجلاً ، وإن آجلاً ، فتكون قدْ مُتَّ أنت من غير ما فائدة ، ومع هذا فإنَّ زوجك سوف تنساك لا محالة وتتزوَّج سواك ، وربَّما تكون قد خانتك الآن ، فصاح الرَّجل قائلاً : صه أيُّها النَّذل الحقير ، واعلم جيِّداً أن عذابكم لجسدي لا يعنيني قدر تعذيبكم بكلامكم هذا الّذي تلفظه ألسنتكم القذرة السَّامّة ! وبكى الرَّجل ، وبدؤوا بتعذيبه ، فكان صراخه يملأ القاعة ، ولكن ليس من منقذ ، بيد أن القُسس كانوا وقوفاً يصلُّون ، وبأيديهم كتبهم يرتِّلون منها الأناشيد المسيحيَّة .

وبينما هم يعذِّبون المسكين على هذه الصُّورة ، سيقت سيِّدة أمام المحكمة ، وكانت رابطة الجأش ، ذات شجاعة مدهشة ، ونظر إليها رئيس المحكمة بنظرات حادّة ، كلُّها الحقد والغضب والانتقام ، وسألها قائلاً :

ـ ما اسمك يا هذه ؟

ـ سوزانا فرناندس .

وسمع زوجها المعذَّب ذلك ، فأنَّ أنيناً طويلاً محزناً ، فقد عَرفَ

أنَّهم قبضوا على زوجه المسكينة ، وأنَّها وقعت بين براثن أُولئـكَ الوحوش العتاة ، أمَّا هي فلم تتمكَّن من معرفة مَنْ يُعَذَّب لِمَـا استولى على القـاعـة من ظلام ، ولكنَّها حينما سمعت الأنين التفتت لترى من يئن ، ولمـا أخـذ رئيس المحكمة في استجوابها وعيناه تتَّقـدان شرراً ، ومنهـا ينبعث الشَّرر لالتفاتها ، واستمرَّ يسألها قائلاً :

- بنت مَنْ أنتِ ؟ فأجابت : لا أعلم .

- ألا تعلمين من همـا أبواكِ ؟ فـأجـابت : كـلاَّ إنَّما رأيت ذات مرَّة رجلاً مارّاً بحيِّ (تريانا) ، فقالوا لي : إنَّ هذا أبي .

- أهذا كلُّ شيء ؟ فأجابت : نعم .

- وأمُّك من تكون ؟ فأجابت : هي أُمِّي

- وأين هي ؟ فأجابت : ماتت .

- وأين ماتت ؟ هل سقطت في الوادي الكبير ؟

- كلا ، بل قُتِلَت قتل العمد .

- وكيف كان هذا ؟

- إنَّها ماتت جوعـاً في سجون ديوان التَّفتيش مع رجل من بقـايـا

العرب ، كان يمرُّ ببابنا كلَّ يوم وقد عزم أخيراً على أن يسكن معها إلى الأبد ، فسكن ، وسأنضم أنا لهما أيضاً .

ـ وهل مات ذلك الرّجل ؟

ـ نعم مات في سجون ديوان التّفتيش .

ـ أكان مسيحيّاً ؟

ـ لاأدري ، ومع هذا فلمَ تسألونني عن المسيحيّة كثيراً ؟ وما دخل الدّيانة المسيحيّة في ديوان التّفتيش ؟!!

وما كادت السّيّدة تُتمُّ كلامها حتّى بدأ رجالُ العذاب في تعذيبها تعذيباً تقشعرٌّ من ذكره الأبدان .

وممّا يذكر .. أنّ هناك عذابا اختصّ به النّساء ، وهو تعرية المرأة إلاّ مما ستر عورتها ، وكانوا يأخذونها إلى مقبرة مهجورة ، ويجلسونها على قبر من القبور ، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدُّون وثاقها ، وهي على هذه الحالة السّيّئة ، ولا يمكنها الحراك ، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديديّة ، ويرخون شعرها فيجلّلها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنّها هي جنّيّة ولا سيما إذا ما أرخى اللّيل سدوله ، وتُتْرَكُ المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن ، أو تموت جوعاً ورعباً[1] .

---

(١) محاكم التّفتيش ، ص : ٩٣

ويوم احتلال نابليون بونابرت لإسبانية ، بعد قيام الثّورة الفرنسيّة ، أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء محاكم التّفتيش في إسبانيـة ، ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب المحاكم الملغاة ، استمرّوا في القتل والتّعذيب ، فشمل ذلك الجنود الفرنسيّين فأرسل المريشال (سولت) الحاكمُ العسكريُّ الفرنسي لمدريد ، الكولونيل (ليمونكي) مع ألف جندي وأربعة مدافع ، وهاجم دير الدّيوان ، وبعد احتلال الدَّير وتفتيشه عنوة ، لم يعثروا على شيء ، فقرّر الكولونيل (ليمونكي) فحص الأرض ، وحين ذلك نظر الرّهبان بعضهم إلى بعض نظرات قلقة .

أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة ، فَرُفِعَت ، ثمَّ أمر بأن يصبُّوا الماء بكثرة في أرض كلّ غرفة على حدة ، ففعلوا ، فإذا الماء يتسرَّب إلى أسفل في إحدى الغرف ، فعرفوا أنَّ الباب من هنا ، يفتح بطريقة ماكرة بوساطة حلقة صغيرة وُضِعَت إلى جوار رجل مكتب الرّئيس ، وفُتِحَ البابُ بقحوف البنادق ، واصفرّت وجوه الرُّهبان وكستها غبرة ، وظهر سُلَّمٌ يؤدّي إلى باطن الأرض .

ونزل القائد الكولونيل وجندُه ، ويذكر هذا الإنسان في مذكّراته ما يلي[1] :

(١) راجع (التّعصُّب والتّسامح بين المسيحيّة والإسلام) ، دحض شبهات وردُّ مفتريات ، للأستاذ محمّد الغزالي ، ط٣ ، سنة ١٩٦٥ م ، ص : ٣١٦

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربّعة ، هي عندهم قاعة المحكمة في وسطها عمود من الرّخام ، به حلقة حديديّة ضخمة رُبِطَت بها سلاسل ، كانت الفرائس تُقَيَّد بها رهن المحاكمة .

وأمام ذلك العمود عرش (الدّينونة) كما يسمّونه ، وهو عبارة عن (دكّة) عالية يجلس عليها رئيس ديوان محكمة التّفتيش ، وإلى جانبه مقاعد أُخرى أقلّ ارتفاعاً معدّة لجلوس جماعة القضاة .

ثمّ توجّهنا إلى آلات التّعذيب ، وتمزيق الأجسام البشريّة ، وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض ، وقد رأيت بها ما يستفزّ نفسي ، ويدعوني إلى التّقزّز ما حييت .

رأينا غرفاً صغيرةً في حجم الإنسان ، بعضها عمودي ، وبعضها أُفقي ، فيبقى سجين العَمُوديّة واقفاً بها على رجليه مدّة سجنه حتّى يقضي عليه ، ويبقى سجين الأُفقيّة ممدّداً بها حتّى يموت ، وتبقى الجثّة في السّجن الضيّق حتّى تبلى ، ويتساقط اللّحم عن العظم ، ولتصريف الرّوائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية ، تُفْتَح كُوّةٌ صغيرة إلى الخارج ، وقد عثرنا على عدّة هياكل بشريّة ، ما زالت في أغلالها سجينة .

والسّجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرّابعة عشرة

والسَّبعين ، واستطعنـا فكاك بعض السُّجنـاء الأحيـاء ، وتحطيم أغلالهم ، وهم على آخر رمـق من الحيـاة ، وكان فيهم من جُنَّ لكثرة مـا لاقى من عذاب ، وكان السُّجناء عراة زيادة في النِّكاية بهم ، حتَّى اضطر جنودنـا أن يخلعوا أرديتهم ، ويستروا بها لفيفاً من النِّساء السَّجينات ..

وانتقلنا إلى غرف أُخرى ، فرأينا هناك ماتقشعر لهولـه الأبـدان ، عثرنا على آلاتٍ لتكسير العظام ، وسحق الجسم .

وعثرنـا على صنـدوق في حجم رأس الإنسـان تمـامـاً ، يوضـع فيـه الرَّأس الْمُعَذَّب ، بعد أن يربط صاحبه بـالسَّلاسل في يـديـه ورجليـه ، فـلا يقـوى على الحركـة ، وتقطر على رأسـه من ثقب في أعلى الصُّنـدوق نقط الماء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام في كلّ دقيقة نقطة ، وقـد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللَّون من العذاب ، قبل أن يحملوا به على الاعتراف ، ويبقى المعذَّب على حاله تلك حتَّى يموت .

وعثرنا على آلة ثالثة للتَّعذيب تسمَّى السَّيِّدة الجميلـة ، وهي عبـارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينـام معهـا ، وقـد برزت من جوانبهـا عـدَّة سكاكين حـادَّة ، وكانوا يطرحون الشَّـابَّ المعـذَّب فوق هـذه الصُّـورة ، ثمَّ يطبِّقـون عليـه بـاب التَّـابوت بسكاكينـه وخنـاجره ، فـإذا أُغْلِقَ ، مُزِّق الشَّـاب وتقطع إربـاً إرباً .

كما عثرنا على جملة آلات لسَلّ اللّسان ، ولتمزيق أثداء النّساء وسحبها من الصُّدور بوساطة كلاليب فظيعة ، ومجالد من الحديد الشّائك لضرب الْمُعَذّبين ، وهم عراة ، حتّى يتناثر اللّحم عن العظام .

ولما شاهد النّاس بأعينهم وسائل التّعذيب جُنَّ جنونهم وانطلقوا ـ كمن به مَسٌّ ـ فأمسكوا برئيس الدّير ووضعوه في آلة تكسير العظام ، فَدقَّت عظامه دقّاً ، وسحقتها سحقاً ، وأمسكوا أمين سِرّه ، وزفّوه إلى السّيّدة الجميلة ، وأطبقوا عليهما الأبواب ، فمزّقته السّكاكين شَرَّ مُمزَّق ، ثمّ أخرجوا الجثّتَيْن ، وفعلوا بسائر العصابة وبقيّة الرّهبان كذلك[1] .

إنَّ مقارنة بسيطة بين الفتح العربي الإسلامي للبلاد المسيحيّة ، والاحتلال المسيحي للبلاد الإسلاميّة ، تعطي فكرة واضحة جليّة عن تسامح المسلمين وحرّيّة المعتقد تحت سلطانهم ، وتعطي في الوقت ذاته صورة جليّة لتعصُّب المسيحيّين والقمع والمجازر والتّحريق الّذي رافق انتصاراتهم ، سواء في الحروب الصّليبيّة في المشرق ، أو في حروبهم الصّليبيّة في إسبانية .

---

(١) يقول الرّوائي والشّاعر الألماني (هيرمان هيسي) : « إنَّ الرّبَّ والكنيسة لا يحميان الأفراد أبداً ـ بما في ذلك موظفي الكنيسة ـ من ممارسة أبشع أنواع السلوك المنحرف » [أسرار الفاتيكان ، ص : ٥] .

فالمسلم لم تجش في نفسه نيات الغدر والفتك والخيانة ، والقتل الجماعي والتَّحريق لغير أبناء دينه ، وقد حكم قروناً طويلة ، ولم نسمع عنه ، ولو مرَّة واحدة ، بمثل ما جرى في محاكم التَّفتيش .

لقد حفظت مبادئ الإسلام لغير المسلم حقوقه ، وعرَّفته بواجباته الَّتي لا تختلف كثيراً عن واجبات المسلمين ، وفي كلِّ الظُّروف عُومِلَ غير المسلم (إنساناً) تُحْتَرَم إنسانيَّتُه :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، [الحُجُرات : ١٣/٤٩] .

وَ « الخلق كلُّهم عيال الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعُهُم لعياله » .

ولما صار زمام القوَّة والحكم بيد النصارى الإسبان ، استُؤصِل المسلمون وأُبيدوا وحُرِّقوا وهُجِّروا .. ومع هذا كله يُتَّهم الإسلام بالقسوة والتَّعصُّب ، وانتشاره بالسَّيف ، ويُوصَفُ المسيحيُّون بالتَّسامح والمحبَّة والكلمة الطَّيِّبة ، فأي ظلم يصيب الإسلام حين يُكْتَبُ تاريخه في أوربَّة ؟!

ألم نقُل : إنَّ ما يفعله المستشرقون بالإسلام يسمَّى (إسقاطاً) ألا وهو اتِّهام الآخرين بما فيهم من سوءٍ ونقصٍ ، ووحشيَّةٍ وتعصُّبٍ !!

الكشوفُ الجغرافيَّة

أقلع يوحنّا الأوّل ، ملك البرتغال[1] ، بمئتَيْن واثنتَيْن وأربعين سفينة يقودها ، من ميناء لشبونة ، بهدف تحقيق أوَّل هجوم توسُّعي برتغالي ، مع استمرارية حرب المسلمين أينما وُجدوا ، فاتَّجه إلى المغرب ، ونحو سبتة بالذَّات لأنَّها المرسى الَّذي لا يزال تقلع منه قوّات المدد الَّذي كان المغرب يوجِّهها لإعانة مسلمي الأندلس أيَّام المرابطين والموحّدين وبني مَرين[2] .

وتمَّ احتلال سبتة يوم الخميس ٢١ آب (أغسطس) ، سنة

---

(١) يوحنا الأوّل Joan 1 أوّل ملوك البرتغال من أُسرة (أبيس) سنة ١٣٨٥ م ، الَّذي تمَّت في عهده الكشوف الجغرافيَّة الأُولى .

(٢) يذكر محمَّد القاسم بن عبد الملك الأنصاري السَّبتي في كتابه : (اختصار الأخبار عمَّا كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار) ، ص : ٢٧ ـ ٣٣ : أنَّه كان بسبتة ألف مسجد ، وأنَّ عدد الخزائن العلميَّة (المكتبات) بها اثنتان وستُّون خزانة ، وأنَّ عدد الرَّوابط الزَّوايا سبع وأربعون مابين زاوية ورابطة ، أمَّا محارس المدينة فعددها ثمانية عشر محرساً ، تمتدُّ إلى اثني عشر ميلاً من خارجها من ناحية البحر .. وكان بسبتة اثنان وعشرون حماماً ، ومئة وأربعة وسبعون سوقاً ، أمَّا المنجرات الْمُعدَّة لعمل القسيّ فعددها أربعون مَنْجرة ، ولَمَّا كانت سبتة ميناء تجارياً يقصده التُّجَّار الأغراب . فإنَّها احتوت على نيِّف وثلاث مئة فندق لخزن الحبوب ، وإيواء المسافرين .

كثيرون من أعضائها قد التجؤوا إلى البرتغال ، حيث بسط عليهم الملك حمايته ، وكان الفوز بعضويَّتها يعدُّ شرفاً عظيماً ، أمَّا الغاية الَّتي كانت تستهدفها فهي مواصلة محاربة المسلمين[1] .

بدأت الكشوف البرتغاليَّة سنة ١٤١٨ م ، حينما أبحرت السُّفن ناشرة أشرعتها ، حاملة إلى شعوب إفريقية جماعة من الرُّهبان ، يبشِّرون بالعهد الجديد (الإنجيل) ، ويعودون منها بكنوزها من الذَّهب والعاج والفلفل ..

ومضى (هنري الملاَّح) بتنفيذ مشروع مغامراته البحريَّة ، لأنَّه كان يأمل أن يجد في ملك الحبشة (القس يوحنَّا) حليفاً له في مقاتلة المسلمين ، مع الوقوف على مدى قوَّة المسلمين في إفريقية ، خصوصاً وقد وهب البابا مارتن الخامس[2] التَّاج البرتغالي كلَّ الممالك الَّتي يستكشفها ، « ثُمَّ أمعن البابا في الكرم والسَّخاء ، فأحلَّ من الأوزار والخطايا أرواحَ من يلقون حتفهم في تلك المغامرات من أعوانه وأجناده »[3] ، معطياً الكشوف طابع الحروب الصَّليبيَّة الصَّريح .

---

(١) (في طلب التَّوابل) سونيا ي. هاو ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ١٩٥٧

(٢) البابا مرتينُس (مارتن) الخامس : [١٤١٧ ـ ١٤٢١ م] ، وهو البابا الخامس بعد المئتيْن .

(٣) في طلب التَّوابل ، ص : ١٠٦

أمَّا المغانم المادِّيَّة ـ كالذَّهب وتجارة الرَّقيق ـ فقد كانت كبيرة جدّاً ، وكانت أوَّل شحنة كبيرة من الرَّقيق سنة ١٤٤٤ م ، قوامها ٢٥٣ رقيقاً ، و « القلب يتفطَّر من الخزي للمناظر البشعة الَّتي تُمثِّل على مسرح الألم والحسرة ، من تمزيق شمل الأُسرة ، وفصل أفرادها الواحد عن الآخر ، يُكتب في تفجُّع بقلم الواقف على أسرار النَّفس البشريَّة ، وما يختلج فيها من شعور الكمد ، وهو لم يزل في طور طفولة الزَّمن ، ولكنَّه يسرح النَّظر فيما وراء العذاب الوقتي إلى الخلاص الأبدي الَّذي أصبح لأُولئك الَّذين سمَّاهم (بأبناء آدم السُّود)[(١)] » .

وتابع البرتغاليُّون كشوفاتهم بعد موت هنري الملاَّح سنة ١٤٦٣ م .

وقرَّر الملك مانويل الأوَّل [١٤٩٥ ـ ١٥٢١ م] ، القضاء على سيطرة الدُّول العربيَّة عن طريق احتلال عدن ومضيق هرمز ، فسيَّر فاسكودوغاما سنة ١٤٩٧ م ، بعد أن قال في وداعه : « هذه المغامرة النَّبيلة ، والمنافع الَّتي تبلِّغ رسالة سيِّدنا وإلهنا يسوع إلى أُولئك الَّذين لا يعلمون عنه شيئاً » ، على أن تبليغ الرِّسالة المسيحيَّة ـ وإن كان الهدف الأوَّل للملك مانويل ـ إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنعه من توصية قوَّاده بضرورة

(١) المرجع السَّابق ، ص : ١٠٤ ، وممَّا يذكر أنَّ ملكة بريطانية (أليزابيت الأُولى : ١٥٥٨ ـ ١٦٠٣ م) كانت شريكة (لجون هوكنز) أعظم نخَّاس في التَّاريخ ، وقد رفعته إلى مرتبة النُّبلاء ، إعجاباً ببطولته .

البحث في الوقت نفسه عن أحسن الوسـائل وأصلحهـا للحصول على ثروة الشّرق ، وشرح الملك بمنتهى الوضوح كيف أنَّ الجمهوريّات الإيطاليّة إنّما تدين بعظمتها وغناها لتجارة التّوابل .

وما إن فرغ الملك من خطـابه ، حتّى تقـدَّم أحد كبـار رجـال الحاشية وهو يحمل لواء جماعة المسيح ، فسلّمه إلى فاسكو دوغاما ، الّذي تناوله ولفّه حول ذراعه ، ثمَّ نطق بهذا القسم : « أنـا فـاسكو دوغـامـا المكلّف من مليكي باكتشاف بحار الشّرق ، وبلاد الهنـد الشّرقيّـة ، أُقسم برمز هذا الصّليب الّذي أضع يدي عليه ، بأن أرفعه عاليـاً مطويّـاً أو منشوراً في سبيل خدمة الله وخدمتكم أينما حللت ، سواء في بلاد المغرب ، أو في بلاد الشّعوب الأُخرى من أي جنس ولون ، وأُقسم إنّني سأُدافع عنـه حتّى الموت ، لا تمنعني عن ذلك الأخطـار ، مهما يكن مبلغها ، وأينما كانت في البحر أو البر ، ومهما أُصلى بنـار الحروب ، وإنّني سـأصـدع بجميع الأوامر الصّادرة إليَّ ، وأُطيع التّعليمات في جميع الظّروف »[١] .

وتسلّم دوغاما من مليكه رسالة موجّهة إلى (القسّ يوحنّا) ملك

---

(١) في طلب التّوابل ، ص : ١٨٠ ، وجاء في (تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليّين) ، ص ٢٤٦ : قال عمانويل الأوّل : « إنّ الغرض من اكتشاف الطّريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحيّة ، والحصول على ثروات الشّرق » .

الحبشـة ، وقضى وبحّـارتـه طـوال اللّيـل يصلّـون لله ويضرعـون إليـه في كنيسة بناها الأمير هنري الملاّح للبحّـارة خـاصّـة ، ورتّل رئيس القُسس (قدّاس الاعتراف العام) ، ثمّ نطق بالمغفرة وفقاً للمعهد الّذي قطعه البابا على نفسـه للأمير هنري المـلاّح ، بـأن يمنحهـا كلّ أُولئـك الّـذين هلكـوا أو قُتِلـوا في الفتـوح ، أو في الكشف عن البـلاد النّـائيـة السّحيقـة ، وأن يعدُّوا من الوجهة الرُّوحيّة كما لو كانوا من بين رجال الحروب الصّليبيّـة ، وأن يمنحوا مثل ما منحوا من الغفران .

ولقد ظهرت قسوة البرتغـاليّين ووحشيّتهم وتعصُّبهم منـذ أوّل يوم نزلوا فيه أراضي إفريقية وآسيـة ، لقـد أحرق دوغـامـا مركبـاً للحجّـاج يحمل مئـات الرّجـال والنّسـاء والأطفـال ، دون أن يستجيب إلى توسّل النِّساء إليه ، وفي أحد المراكز الهنديّة أسر حوالي ثمان مئة بحّـار هنـدي ، وشنقهم على ظهر سفينـة ، وقطـع أيـديهم ورؤوسهم ، ثمّ دفـع جثثهم في مركـب حمله التيّـار إلى الشّـاطئ ليراها ذووهم .

وبعد عودة دوغامـا بستّـة أشهر ، أرسل الملـك أُسطولاً مكوّنـاً من ثـلاث عشرة قطعـة إلى الهنـد بقيـادة بـدرو ألفـارز كابرال Pedro Alvares Cabral ، عليهـا ألف وخمس مئـة جنـدي ، عـدا البحّـارة ، ومهرة العمّـال ، وسبعـة عشر قسّيسـاً ، وكان على كابرال أن

يبدأ بالدّعوة إلى المسيحيّة ، فإن لم تأت الدّعوة بالنّتيجة المنشودة : « فليحتكم إلى السّيف »[1] .

وفي سنة ١٥٠٦ م أرسل الملك مانويل (ألفونسو ألبوكيرك : Albuquerque) إلى الشّرق ، فدخل مضيق باب المندب ، ووصل مصوَّع وسواكن وجدة والسُّويس ، ثمّ وصل إلى شواطئ عُمان ، ومضيق هرمز ، ولمّا استولى ألبوكيرك على ملقّا ، في جنوب شرقي آسية ، وعلم الملك مانويل نبأ الاستيلاء عليها ، أوفد من فوره رسولاً إلى البابا ، ليفضي إليه بالنّبأ السّعيد ، بأن « القرن الذّهبي قد أصبح الآن مُلْكاً للبرتغال » ، وأقام البابا ليو العاشر[2] بمناسبة « هذا الانتصار العظيم » انتصار ملك مسيحي على (الكُفّار) والوثنيّين قُدّاساً خاصّاً للشُّكر ، وأمر بتسيير موكب رسمي اشترك فيه بنفسه[3] .

وفي (غُوَا)[4] ، قابل ألبوكيرك سفيراً من قبل الملكة الوصيّة على عرش الحبشة ، كان قد وفد على الهند بغية السّفر إلى البرتغال على ظهر إحدى السُّفن البرتغاليّة العائدة إلى موطنها ، وكان هذا المبعوث يحمل

---

(١) في طلب التّوابل ، ص : ٢٠٨

(٢) البابا ليو (ليون) العاشر ، البابا السّادس عشر بعد المئتين : [١٥١٣ ـ ١٥٢١ م] .

(٣) في طلب التّوابل ، ص : ٢٢٢

(٤) غُوَا Goa : مدينة في جنوب غربي الهند ، بقيت تابعة للبرتغال حتّى سنة ١٩٦١ م .

خطاباً تقترح فيه الملكة التّزاوجَ بين أبناء الأُسرتَيْن المالكتَيْن ، وعرضاً رسمياً من الحبشة بإرسال الجنود والمؤن لمعاونة البرتغاليّين في كسر شوكة السُّلطان في القاهرة[1] ، وتحطيم مدينة مكَّة .

راق كلُّ هذا لألبوكيرك ، لأنَّه يتمشَّى مع خطَّته ، إذ كانت تلتهب في رأسه فكرة المسير السَّريع إلى المدينة لاختطاف رفات النَّبيِّ الكريم ﷺ ، ثمَّ عرضها على المسلمين بعد ذلك مقابل التَّخلِّي عن فلسطين[2] ، وهذا يثبت الرُّوح الصَّليبيَّة الأُوربيَّة الحاقدة ، الَّتي توَّجت الكشوف الجغرافيَّة .

وكان من بين الخطط الَّتي اعتزمها ألبوكيرك ، تحويل نهر النِّيل عن مجراه ، كي تحرم مصر من خصوبة أرضها[3] ، فيتم هلاكها ، وعبَّر الأحباش عن استعدادهم ورغبتهم الصَّارمة في القيام بهذا العمل ، ولكن كانت تنقصهم الوسائل لتنفيذه ، فطلب ألبوكيرك من الملك مانويل أن يرسل إلى الحبشة صُنَّاعاً من جزر آزور[4] ، لمهارتهم في القيام بمثل هذا

(١) كان المماليك يحكمون قلب الوطن العربي في هذه الآونة ، وكانت القاهرة عاصمتهم ، وسلطانهم قانصوه الغوري .

(٢) في طلب التَّوابل ، ص : ٢٢٥

(٣) لأنَّ معظم كمِّيَّات الطَّمي (الغرين) الَّتي يحملها النِّيل قادمة من النِّيل الأزرق القادم من الحبشة .

(٤) جزر في المحيط الأطلسي (برتغاليَّة) .

العمل ، إذ كان عليهم أن يفتحوا ثغرة بين سلسلة التِّلال الصَّغيرة ، الَّتي تجري بجانب النِّيل داخل الحبشة ، فأرسل الملكُ البرتغاليُّ : « دون رودريجو دي ليما Rodrigo de Lima سفيراً إلى الحبشة ، فوصل عاصمتها أكسوم سنة ١٥٢٠ م ، ولكن ألبوكيرك توفِّي قبل ذلك (سنة ١٥١٥ م) دون أن يضع الخطط ـ الَّتي كان قد اعتزمها بشأن مصر ـ موضع التَّنفيذ .

ولما وصل سبستيان[١] إلى عرش الإمبراطوريَّة البرتغاليَّة ، أراد أن يعلي شأنه بين ملوك أُوربَّة ، فظهر يحمل في يمناه كتابه المقدَّس ، وفي يسراه التَّاج والصَّولجان ، ليتوِّج نفسه إمبراطوراً على المغرب وإفريقية ، وإنَّه حلم امتلاك الدُّنيا بعد الكشوف الجغرافيَّة واحتلال كل أراضي الإسلام ، والقضاء عليه أينما وُجِدَ .

فالملك الشَّاب سبستيان كان يملك من الحماسة والحقد على الإسلام وأهله عموماً ، وعلى المغرب خصوصاً ، ما تكاد تنفجر به جوارحه ، وبدافع حقد وتعصُّب صليبي من جهة ، وبدافع من العقليَّة الاستعماريَّة ، الَّتي ترى أن يدها مطلقة ، في كلّ أرض عربيَّة مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أيّ خطر خارجي من جهة أُخرى ، خطَّط لغزو المغرب واحتلاله[٢] .

---

(١) تربَّع سبستيان على عرش الإمبراطوريَّة البرتغاليَّة سنة ١٥٥٧ م .

(٢) دعوة الحق ، مقالة الاحتلال البرتغالي ومعركة وادي المخازن ، ص ١٠٤ ، للأُستاذ =

فحشد سبستيان اثني عشر ألفاً من البرتغال .

وأمدَّه خاله فيليب الثَّاني ملك إسبانية بعشرين ألفاً من عسكر الإسبان .

كما أرسل إليه الطِّليان ثلاثة آلاف ، ومثلها من الألمان ، وغيرهم عدداً كثيراً .

وبعث إليه صاحب رومة[1] ، بأربعة آلاف أخرى ، وبألف وخمس مئة من الخيل ، واثني عشر مدفعاً ، وجمع سبستيان نحو ألف مركب ليحمل هذه الجموع إلى العدوة المغربيَّة .

وفي معركة وادي المخازن (أو معركة الملوك الثَّلاثة ، أو معركة القصر الكبير)[2] ، في ٤ آب (أُغسطس) ١٥٧٨ م ، صُرِع سبستيان ، وأُلوف من حوله ، وانتصر الأشراف السَّعديُّون بقيادة عبد الملك المعتصم بالله ، بعد معركة دامت أربع ساعات وثلث السَّاعة ، ولم يكن النَّصر فيها مصادفة ، بل كان بسبب معنويَّات عالية ، ونفوس مؤمنة شعرت بالمسؤوليَّة ، وخطَّة مدروسة مقرَّرة محكمة ، فما هي إلاَّ (٢٦٠) دقيقة فقط ، ومصير المغرب الأقصى يتقرَّر إلى الأبد عربيّاً مسلماً .

= عبد القادر العافية .

(١) البابا غريغوريوس الثَّالث عشر : [١٥٧٢ ـ ١٥٨٥ م] .

(٢) انظر معركة (وادي المخازن) ، ص : ٤٧ ، نشر دار الفكر بدمشق .

إنَّهـا كشوف جغرافيَّـة أُوربيَّـة ، ومـا هي في حقيقتهـا إلاَّ امتـداد للحروب الصَّليبيَّـة ، وفي جوهرهـا إلا حركـة تبشيريَّـة ، واستمرار لمحاكم التَّفتيش ، لـذلـك اتَّصفت بضخـامـة الحشـد ، واتَّسمت بـدقَّـة التَّنظيم والإعداد ، لغزو الإسلام في أيِّ بقعة من بقاع الأرض .

وهـذه شهـادة منصفـة من مبشِّر في إفريقيـة ذكرهـا في كتـابـه : (الإسلام في إفريقية الشَّرقيَّة) ، وصاحب الكتاب هو المبشِّر : (ليندن هاديس) ، فقد قرَّر المؤلِّف بعد النَّظر إلى الفارق الكبير بين أثر العرب المسلمين ، وأثر الأُوربيِّين في إفريقية الشَّماليَّة ، أنَّ البرتغاليِّين قضوا فيها نحو مئتي سنة ، لم يتركوا بعدها أثراً من آثار الحضارة النَّافعة ، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الَّذي حـلَّ على أيـديهم بـالمعـاهـد والمعـابـد الإسلاميَّة ، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخرِّبون وينهبون ، أمَّا العرب الَّذين انتقلوا إلى السَّواحـل ، فـإنَّهم نقلوا إليهـا الكتـابـة والعمارة وأدوات الحضارة ، وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة .

وليس ما حدث من الدَّمـار حلَّ في إفريقيـة فحسب ، بل حلَّ في كلِّ بقعة وصلها المبشِّرون الصَّليبيُّون المستعمرون .

ماذا فعل رعاة البقر بشعب أمريكة الأصلي (الهنود الحمر) ؟

الجواب وبكلِّ بساطة : إبادة كاملة .

وماذا فعلت فرنسة في الجزائر مثلاً ؟

الجواب : مليون شهيد وأكثر ، مع اتِّباع سياسة الأرض المحروقة على يد (بوجو) .

وماذا فعلت إنكلترا في أُستراليا ؟

الجواب : إبادة واستعمار استيطاني ، وفي إفريقية تمييز عنصري[1] .

وماذا عملت إسبانية والبرتغال في سكّان أمريكة الجنوبية ؟

الجواب : انتهاء حضارة الأنكا والمايا والآزتيك ، وإبادة كاملة ، مع سفن أسبوعية في قوافل منتظمة مستمرة لنقل الذّهب والفضّة إلى إسبانية والبرتغال .

يقول الدُّكتور شاكر مصطفى : « الحديث عن الهنود الحمر حديث عن مأساة ٣٠ مليون إنسان أبادتهم البندقيَّة الأوربيَّة والمدفع ، عن جريمة اشتركت فيها جميع القوى الأوربيَّة ، وكان لها أكثر من

(١) ومن المفارقات الطَّريفة ، أنَّ السَّفينة الَّتي أعدَّتها الملكة أليزابيت الأولى لشريكها في تجارة الرَّقيق (جون هوكنز) كانت تسمَّى (يسوع) !! وكان عدد السُّفن المخصَّصة للاتِّجار بالرَّقيق ١٩٢ سفينة ، تتَّسع حمولتها في الرِّحلة الواحدة ٤٧٠١٤٦ رقيقاً ، وطلبت من رجال الدِّين مبرِّراً لهذه التِّجارة ، فأسعفوها بنصوص التَّوراة الَّتي تحلُّ الرِّقَّ ، [حقوق الإنسان ، ص : ١٢٧] .

جنكيزخان واحد ، وكانت عمليَّة من أفجع عمليَّات الإبادة الجماعيَّة في التَّاريخ ، باسم الكنيسة والمدنيَّة ، هذا الثُّنائي السَّاحق تمَّت العمليَّة ، وكل أُقنوم من هذا الثُّنائي كافٍ وحده لتبرير كلّ شيء ، كريستوف كولومبوس في صوره الرَّمزيَّة هناك وراء المحيط يرسمونه دون مواربة بشكل إنسان من شقَّيْن ، شق يلبس الزَّرد ويحمل السَّيف ، وشق في سواد الكهَّان يحمل الصَّليب ، الحلف بين السَّيف والصَّليب دفعت ثمنه دماً تلك الملايين المنكودة الحظ في العالَم الجديد ، ودفعته أولاً أشلاء وإبادة وسحقاً تحت الحوافر ، ثمَّ دفعته تشويهاً لحضارتها ومكانها الإنساني ، وتدميراً لعمرانها تحت ضغط العطش القاتل للذَّهب .

كلُّ تلك الأنماط الأُخرى من الفكر والحياة والعلوم والعقائد والأساطير وطرق الحياة والبناء والتَّنظيم الاجتماعي والحرب الَّتي تطورت على حدة في تلك الأصقاع خلال القرون الطَّويلة السَّابقة لكولومبوس كلُّ أولئك مُسِحَ حتَّى البشر لأنَّ الأُوربيِّين كانوا يملكون البندقيَّة مع البارود والحصان ، ويعرفون النُّحاس والحديد ، كان الحقُّ معهم وعلى تلك الحضارات الأُخرى أن تموت »[1]

---

(١) المظلومون في التاريخ ، ص : ١٢١ ، ثمَّ يتحدَّث الدُّكتور شاكر مصطفى عن تدمير (كورتيز) لعاصمة الأزتيك (في المكسيك) وسحقها وإبادة أهلها في آب (أغسطس) ١٥٢١ م ، « المدينة مجرد خرائب يتصاعد منها الدُّخان والنَّار ورائحة أكثر من =



نزول كولومبوس في هايتي لقد ارتكبت هذه الأعمال الوحشية باسم السَّيِّد المسيح ، وهو منها براء (لاحظ رفع الصَّليب في الصُّورة ، حيث كان يرفع في كلِّ بقعة وصلها الإسبان أو البرتغاليُّون في أمريكا وأفريقية وآسية) .

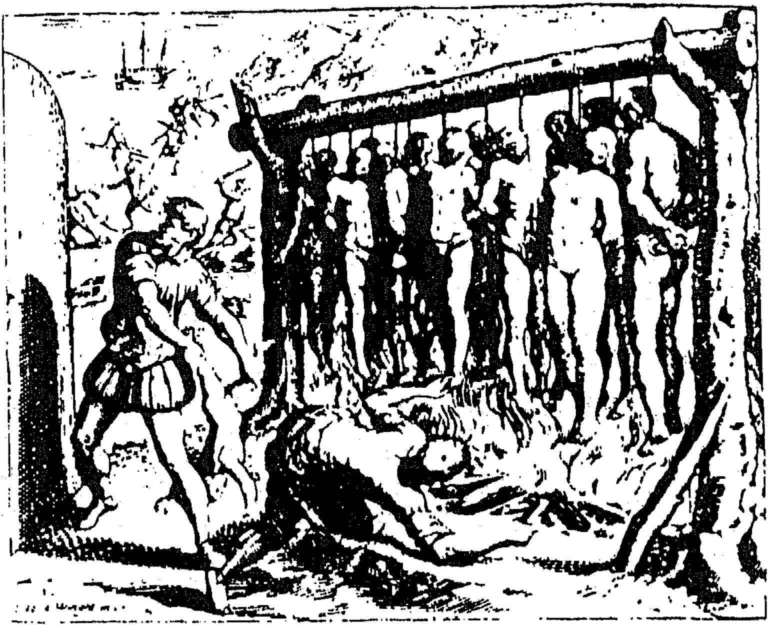
وكيف عامل الأوربيُّون أطفال الإنكا والمايا والأزتيك ؟

« قابل مسيحيُّون هنديَّة ، كانت تحمل بين ذراعيها طفلاً كانت تقوم بإرضاعه ، وبما أنَّ الكلب الَّذي كان يرافقهم كان جائعاً ، فقد انتزعوا الطِّفل من بين ذراعي الأُم ، ورموه حيّاً إلى الكلب ، الَّذي أخذ ينهشه تحت بصر الأُم ذاته .. وعندما كان بين السُّجناء بضع نساء وضعن حديثاً ، فإنَّهم ما إن كان الأطفال الَّذين ولدوا حديثاً يأخذون في العويل ، يمسكونهم من سيقانهم ويصرعونهم برميهم على الصُّخور ، أو كانوا يلقونهم في الأحراش حتَّى يكون موتهم مُؤكَّداً فيها »[1] .

ويروي (لاس كاساس) حكاية شارك فيها ، إنها مجزرة (كاوناو) ، الَّتي ارتكبتها قوَّات (ناربايث) ، الَّتي كان مرشداً دينيّاً لها ، وتبدأ الحادثة بظرف عرضي : « إلاّ أنَّه يجب معرفة أن الإسبان ، يوم وصولهم إلى هناك ، قد توقَّفوا في الصَّباح ، لتناول طعام الإفطار ، في مجرى جاف لأحد الأنهار ، وكان يحتفظ مع ذلك بعدد من غدران الماء الصَّغيرة ، وكان غاصّاً بالحجارة الصَّوانية ، وهذا هو ما ألهمهم فكرة شحذ سيوفهم .

= ٥٠ ألف جثَّة متعفِّنة تملأ حوض البحيرة الجبلي وانتهت مدينة الآزتيك إلى الأبد » .

(١) فتح أمريكا (مسألة الآخر) ، ص : ١٤٩



أعمال الإسبان الوحشيّة

(الشّنق الجماعي ، وقتل الأطفال برميهم على صخور)



(إطعام الأطفال إلى الكلاب وشنقهم على جسد أمّهاتهم)

وعند وصولهم إلى القرية بعد هذا الإفطار على العشب ، راودت الإسبان فكرة جديدة : التّحقّق ممّا إذا كانت السّيوف قاطعة بالدّرجة الّتي تبدو بها ، فجأة يستلّ إسباني السّيف ، وسرعان ما يحذو المائة الآخرون حذوه ويشرعون في تمزيق أحشاء وقطع وذبح هذه الشّياه والحملان من الرّجال والنّساء والأطفال والشّيوخ ، الّذين كانوا جالسين هادئين ، يتفرّجون في عجب على الجياد والإسبان ، وفي ثوانٍ معدودات ، لا يبقى على قيد الحياة أحد من جميع أُولئك الّذين كانوا موجودين هناك ، ولدى دخول الإسبان بعد ذلك إلى البيت الكبير الّذي كان مجاوراً ، لأنَّ ذلك كان يحدث أمام بابه ، يشرع الإسبان بالمثل ، عن طريق الطّعن والقطع ، بقتل جميع من كان هناك حتّى سال الّدم في كلّ مكان كا لوأنّه قد جرى ذبح قطيع من الأبقار .

ولا يجد (لاس كاساس) أي تفسير لهذه الأحداث إن لم يكن الرّغبة في التّحقّق من أن السّيوف قد شُحذت شحذاً جيّداً ، لقد كان مشهد الجراح الّتي غطّت أجساد الموتى والمحتضرين مشهد رعب وذعر .. »[1] .

هذا .. ولم نسمع كلمة استنكار من رجال الدّين في أُوربة بحقّ

---

(١) المرجع السّابق ، ص : ١٥١ و ١٥٢

ما جرى ، وأن السَّيِّد المسيح رسول السَّلام ، ورسول المحبَّة لا يسمح بهذه الأعمال ، في حين نسمع احتجاجاتهم على طرد مُبَشِّر من السُّودان ـ دون أدنى أذى ـ لمخالفته قوانين البلاد !!

وكان النَّشيد الَّذي ردَّده الغزاة الإيطاليُّون ، وهم في طريقهم لغزو ليبيا سنة ١٩١١ م :

« ياأُمَّاه أتمِّي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأمَّلي ، ألا تعلمين أنَّ إيطالية تدعوني ، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأُمَّة الملعونة ، ولأُحارب الدِّيانة الإسلاميَّة ، سأُقاتل بكلِّ قوَّتي لمحو القرآن ، وإن لم أرجع فلا تَبْكي على ولدك ، وإن سألك أخي عن عدم حزنك عليَّ فأجيبيه إنَّه مات في محاربة الإسلام » .

أين هذا ، ممَّا نجده في القرآن الكريم :

﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ ، [آل عمران : ٦٤/٣] .

ولم تعرف المسيحيَّة التَّسامح حتَّى بين أتباعها إن اختلف المذهب ، ولن نتحدَّث مطوَّلاً عن الحروب الَّتي نشبت في أُوربَّة إبَّان الإصلاح الدِّيني ، ونكتفي بمثال واحد فقط :

مَلْحَمَةُ سان بارتلمي :

ملحمة سان بارتلمي مذبحة أمر بها سنة ٥٧٢ م شارل التّاسع ، وكاترينا دوميديسيس ، حينما قتلت كاترينا خمسة من زعماء البروتستانت في باريس ، ظنّت أنّهم يأتمرون بها وبالملك ، ولم يكد ينتشر الخبر في باريس حتّى شاع أنّه شُرِعَ في قتل الخوارج[1] ، فانقضّ أشراف الكاثوليك والحرس الملوكي والنّبّالة والجمهور على البروتستانت ، وقتلوا منهم ألْفَي نسمة ، وقد قلّد سكّان الولايات الفرنسيّة بعامل العدوى أهل باريس ، فسفكوا دماء ستة إلى ثمانية آلاف نسمة .

ولم تنل حادثة السّان بارتلمي أيّام وقوعها شيئاً من الانتقاد في أوربّة الكاثوليكيّة ، وقد أوجبت حماسةً تفوق الوصف ، فكاد فيليب الثّاني يصبح مجنوناً لشدّة فرحه يوم بلغه وقوعها ، وانهالت التّهاني على ملك فرنسة أكثر من انهيالها عليه لو نال نصراً عظيماً في ساحة الوغى .

وما بدا السّرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثّالث عشر ، فقد أمر بضرب أوسمة خاصّة تخليداً لذكراها ، رُسِمَت على هذه الأوسمة صورةُ غريغوار الثّالث عشر ، وبجانبه ملك يضرب بالسّيف أعناق الخوارج ، ثمّ هذه العبارة :

---

(١) الخوارج هنا يعني البروتستانت الّذين خرجوا عن سلطة بابا رومة الكاثوليكي .

« قُتِلَ الخوارج » ، كما أمر بإيقاد نيران الفرح ، وبضرب المدافع ، وبتكليف الرَّسَّام فازاري أن يصوّر على جدران الفاتيكان مناظره[1].

لم نذكر في انتشار الشَّرائع شيئاً عن موقف اليهوديَّة ونظرتها إلى التَّسامح ، لأنَّنا لا نستطيع إيرادها ، أو التَّحدُّث عنها بشيء تحت هذا العنوان السَّمح الجميل ، والإنساني الأصيل . ونكتفي ببعض النُّصوص التَّوراتيَّة كما جاءت في سفر التَّثنية ويَشُوع ، حيث يقرِّر ما يجب فعله في مدينة غزاها اليهود واحتلُّوها :

« فضرباً تَضْرِبُ سكَّان تلكَ المدينة بحدِّ السَّيف وتحرِّمُها بكلِّ ما فيها مع بهائمها بحدِّ السَّيف ، تَجْمعُ كُلَّ أمتعتها إلى وَسطِ ساحتها وتَحْرِقَ بالنَّار المدينةَ وكلَّ أمتعتها كاملةً للرَّبِّ إلهكَ فتكون تلاًّ إلى الأبد لا تُبنى بعده »[2].

---

(١) روح الثَّورات ، غوستاف لوبون ، ص : ٤٤ ، ولقد ذكر الأستاذ (رينو) في كتابه (مختصر تاريخ الحقوق الفرنسية) أن فرنسة أصدرت عام ١٦٨٥ م أمراً بتحريم الدِّيانة البروتستانتيَّة ، وهدم كنائسها ، ونفي رؤسائها من البلاد ، وفي عام ١٧١٥ م عدَّت كل زواج لا يعقد على الطَّريقة الكاثوليكيَّة زواجاً غير مشروع ، وفي عام ١٧٢٤ م حرَّمت البروتستانت من تولِّي الوظائف ، وأمرت بأن يؤخذ أطفال البروتستانت ، ويربوا تربية كاثوليكيَّة .

(٢) سفر التَّثنية ١٥/١٣ و ١٧

« حين تقربُ من مدينة لكي تحاربَها استدعها إلى الصُّلح ، فإن أجابتك إلى الصُّلح وفتحت لك ، فكلُّ الشَّعب الموجود فيها يكون لك للتَّسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرَّبُّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السَّيف ، وأمَّا النّساء والأطفال والبهائم وكلُّ ما في المدينة كلُّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكُلُ غنيمةَ أعدائك الَّتي أعطاك الرَّبُّ إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدّاً جدّاً الَّتي ليست من مدن هؤلاء الأُمم هنا ، وأمَّا مدن هؤلاء الشُّعوب الَّتي يعطيك الرَّبُّ إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ، بل تحرِّمها تحريماً .. »[١] .

وفي سفر يَشُوع تتكرَّر عبارة :

« واضربوها بحدّ السَّيف »[٢] ،

ونكتفي بنصٍّ واحد من السِّفر المذكور :

« ... وكلُّ غنيمة تلك المدن والبهائم نَهَبَها بنو إسرائيل لأنفسهم ، وأمَّا الرِّجال فَضَرَبُوهُم جميعاً بحدِّ السَّيف حتَّى أبادوهم .. »[٣] .

---

(١) سفر التَّثنية ٢٠/١٠ ـ ١٧

(٢) يشوع : ٦/٢١ ، و ٨/٢٨ ، و ١٠/٢٨ و ٣٠ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٨ ، و ١١/١١ و ١٢

(٣) يشوع : ١١/١٤ و ١٥

أمَّا العجائب الَّتي جاءت في التَّلمود ، فمنها :

« إنَّ الإسرائيلي يعتبر عند الله أكثر من الملائكة ، فإن ضرب أُمِّيٌّ[1] إسرائيليّاً ، فكأنَّه ضرب العزَّة الإلهيَّة »[2] .

« إنَّ الكلب أفضل من الأجانب ، لأنَّه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطْعم الكلب ، وليس له أن يطعم الأجانب ، وغير مصرَّح له أيضاً أن يعطيهم لحماً ، بل يعطيه للكلب لأنَّه أفضل منهم »[3] .

« قارن هذا اللُّؤم والحقد على سائر البشر بقول رسول الإسلام محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام :

« في كلِّ كبد رطبة أجر » .

أي في كلِّ ماتطعمه جائعاً ذا كبد رطبة ثواب لك من الله تعالى دون تمييز بين مسلم وغير مسلم لأنه عمل إنساني »[4] .

---

(١) الأُمّي : يريدون به من ليس يهوديّاً .

(٢) الكنز المرصود في قواعد التّلمود ، ص : ٧٢ ، ترجمة الدُّكتور يوسف نصر الله ، دار القلم ، ط ١ ، ١٩٨٧ م .

(٣) المرجع السَّابق ، ص : ٧٤

(٤) تعليق الأستاذ مصطفى الزَّرقا في المرجع السَّابق ، ص : ٧٤

وأخيراً .. كيف نتكلَّم عن التَّسامح عند اليهوديَّة وأصحابها « شعب الله المختار » ، والنَّاس كلُّهم دونهم ، مسخَّرون لهم ؟!؟

والفروق عظيمة في المعاملة بين اليهودي وغيره ، جاء في سفر التَّثنية ١٩/٢٣ و٢٠ : « لا تُقرض أخاك برباً ربا فضَّة أو ربا طعامٍ أو ربا شيءٍ ما ممَّا يُقْرَضُ برباً ، للأجنبيِّ تُقرضُ برباً ولكن لأخيكَ لا تُقْرِض برباً لكي يباركك الرَّبُّ إلهك في كُلِّ ما تمتدُّ إليه يَدُك في الأرض الَّتي أنت داخلٌ إليها لتمتلكها » .

والدِّيانة الهندوكيَّة صنو الدِّيانة اليهوديَّة ، وإنَّ من يقرأ التَّوراة ، ويقرأ (منّو سمرتي) أحد كتب الهنادكة المقدَّسة ، يجد في عادات القومين وعقائدهم وعباداتهم واعتقاداتهم من التَّشابه ما لا يدع مجالاً للشَّكِّ بأنَّ أصلها واحد[1] .

« فالهندوكي ما زال إلى اليوم يقدِّس البقر ولا يجيز مسَّها بسوء ، بله ذبحها وأكلها ، ويقدِّس القردة والأفاعي وغيرها من الحيوانات .. ومع كلِّ هذه الجهالات العمياء والسَّخافات ، فإنَّهم ينظرون إلى غيرهم من الأُمم وإلى المسلمين منهم بصورة خاصة نظرتهم إلى الأقذار

---

(١) علمانيَّة الهند ، ص : ٦ ، شريف المجاهد ، ترجمة : د . إحسان حقّي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، ١٩٨٩ م .

والنَّجاسات لا بل ويذهبون إلى أبعد من ذلك في أوهامهم وسخافاتهم وصلفهم ، ويزعمون أنّ صوت المسلم نجس ، وظلّه نجس ، ولمسه ينجسهم ، وإذا مسّ المسلم آنية من أوانيهم تنجّست ويجب كسرها لا غسلها ، لأنَّها لا تنظف بالغسل بزعمهم ، وصوت المؤذن للصّلاة ينجّس إلى حيث يسمع »[1] .

« ومع ما هو عليه الهندوكي من اعتقادات يخجل منها الحيوان الأعجم لو كان يعقل فإنَّهم يرون أنفسهم شعب الله المختار .. ومن الأمثلة على نظرة الهندوكي إلى المسلم نظرة تحقير وإهانة ، أنَّه حدث أن غرقت سفينة في نهر ، فأسرع بعض المسلمين لإنقاذ ركَّابها الهنادكة ، فأبى هؤلاء أن ينقذهم مسلمون لكي لا يتنجّسوا بهم ، فغرق منهم من غرق ، ولكن المسلمين بدافع الإنسانيّة لم يبالوا برفض الهنادكة ، بل عملوا جهدهم لإنقاذ من استطاعوا إنقاذه ، ربما يظنُّ من لا يعرف الهنادكة والهندوكيّة أنَّ في هذا القول مبالغة ، ولكنَّه هو الواقع .. وليس هذا هو الحادث الوحيد ، بل كل يوم نجد حادثة شبيهة به »[2] .

إنَّه التَّعصُّب مقابل تسامح المسلمين وإحسانهم وبرِّهم !؟!

---

(١) المرجع السّابق ، ص : ٨

(٢) المرجع السّابق ، ص : ١٢ و ١٣

شهادات منصفة

يقول (فانْسان مونتيه) ، أُستاذ اللُّغة العربيَّة والتَّاريخ الإسلامي بجامعة باريس[1] :

« اخترت الإسلام لأنَّه دين الفطرة ، اخترته ديناً ألقى به وجه ربِّي ، كنت في (سان سير) ووقع بين يدي لأوَّل مرَّة في حياتي ترجمة لمعاني القرآن ، قام بها (أندريه دورير Andre Durirr) سنة ١٩٤٧ ، فاطَّلعت على رأي الإسلام بمسألة السَّيِّد المسيح ، وعرفتُ أنَّه بشر أُوحي إليه ، ومن أسباب إسلامي تسامح الإسلام تجاه أبناء الأديان الأُخرى ، وعلى العكس كما يقول سوليناك Soliynac : (داء الجهاد العصبي المسيحي) » .

☆ لوي ماسنيون[2] كان يسمِّي الإسلام على الصَّعيد الاجتماعي : « حكومة المساواة الإلهيَّة » أو « الثِّيوقراطيَّة المحِبَّة للمساواة » .

---

(١) ثمَّ أصبح رئيس مؤسَّسة الدِّراسات الإسلاميَّة في مدينة داكار ، وهو مؤلِّف كتاب : (الإرهاب الصُّهيوني) ، وكتاب (الإسلام في إفريقية السُّوداء) ، وكتاب (مفاتيح الفكر العربي) .

(٢) Massignon : [١٨٨٣ ـ ١٩٦٢] مستشرق فرنسي ، اهتمَّ بنشر مؤلَّفات الحلاَّج .

☆ المستشرق الألماني أُولرش هيرمان :

الّـذي لفت نظري أثنـاء دراستي لهــذه الفترة ـ فترة العصـور الـوسطى ـ هـو درجـة التّسـامـح الّتي تمتّـع بهـا المسلمـون ، وأخصُّ هنـا صلاح الدّين الأيّوبي ، فقد كان متسامحاً جـدّاً تجـاه المسيحيّين ، بل كان أكثر تسامحاً من المسيحيّين :

إنَّ المسيحيَّة لم تمارس الموقف نفسه تجاه الإسلام .

الإسلام دين جذّاب جـدّاً ، وهـذا يعود ربمـا إلى وضوح الرِّسـالـة الإسلاميَّة ، ولأسباب لا أعرفهـا ، وإذا نظرنـا إلى إفريقيـة ، حيث تقوم الجماعات الإسلاميَّة والمسيحيَّـة كلٌّ على حـدة طبعـاً بمحـاولات تستهـدف تخليص الشّعوب الإفريقيـة من الوثنيَّـة ، نجـد الغلبـة والنَّصر للإسـلام ، وهذا كما أسلفتِ قد يكون سببـه وضوح الرِّسـالـة الإسلاميَّـة ، وكـذلـك جاذبيَّة الرِّسالة الأخلاقيَّة الإسلاميَّة »[1] .

☆ روبرتسون : « إنَّ أتباع محمَّد ﷺ هم الأُمَّة الوحيدة الّتي جمعت بين التَّحمُّس في الـدِّين والتَّسـامح فيـه ، أي أنَّهـا مع تمسُّكهـا بـدينهـا لم تعرف إكراه غيرها على قبوله »[2] .

---

(١) (العالم) ، العدد ٢٩٠ ، السَّبت ٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٩ م .

(٢) حاضر العالم الإسلامي ، ص : ١/١٠٤

☆ أمَّا غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) فيقول :

« وكان محمَّد كثير المسـامحـة لليهود والنَّصارى خلافـاً لمـا يظن » ، [ص : ١٥٥] .

« وساعـد وضوح الإسلام ومـا أمَرَ بـه من العـدل والإحسـان على انتشاره في العـالم ، وبتلـك المزايـا نفسِّر سبب اعتنـاق كثير من الشُّعوب النَّصرانيَّـة للإسلام ، كالمصريِّين الَّـذين كانـوا نصـارى أيَّـام حكم قيـاصرة القسطنطينيَّة فـأصبحوا مسلمين حين عرفوا أُصول الإسلام ، كما نُفَسِّر بـه السَّبب في عدم تنصُّر أيَّة أُمَّة بعد أن رضيت بالإسلام دينـاً ، سواء أكانت هذه الأُمَّة غالبة أم مغلوبة » ، [ص : ١٥٩] .

« إنَّ القـوَّة لم تكن عـاملاً في انتشـار القرآن ، فقـد ترك العربُ المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النَّصرانيَّة الإسلامَ ، واتَّخـذوا العربيَّـة لغـةً لهم ، فـذلـك لمـا رَأَوْه من عَـدْل العرب الغالبين ممَّا لم يَرَوْا مثله من سادتهم السَّابقين ، ولمـا كان عليـه الإسلام من السُّهولة الَّتي لم يعرفوها من قبل .

والتَّاريخ أثبت أنَّ الأديـان لا تُفْرَض بـالقوَّة ، فلمـا قهر النَّصـارى عرب الأنـــدلس ، فضَّــل هـؤلاء القتــلَ والطَّرد عن آخرهم على ترك الإسلام .

ولم ينتشر الإسلام بالسَّيف ، بل انتشر بالدَّعوة وحدَها ، وبالدَّعوة وحدها اعتنقت الإسلامَ الشُّعوب » ، [ص : ١٦٢] .

« إنَّ مسامحة محمَّد لليهود والنَّصارى كانت عظيمة إلى الغاية ، ممَّا لم يقم بمثله مؤسِّسو الأديان الَّتي ظهرت قبله كاليهوديَّة والنَّصرانيَّة على الخصوص ، وقد اعترف بذلك التَّسامح بعض علماء أُوربَّة المنصفون القليلون الَّذين أمعنوا النَّظر في تاريخ العرب ، والعبارات الآتية الَّتي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم ، تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصّاً بنا ، قال روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن) :

« إنَّ المسلمين مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا مَنْ لم يرغبوا فيه أحراراً في التَّمسُّك بتعاليمهم الدِّينيَّة »[1] .

وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصَّليبيَّة) :

« إنَّ الإسلام الَّذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأُخرى ، فقد أعفى البطاركة والرُّهبان وخدمهم من الضَّرائب ، وحرَّم محمد قتل الرُّهبان على الخصوص ، لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطَّاب النَّصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصَّليبيُّون المسلمين بلا رحمة وقتما دخلوها » .

(١) أوردنا النَّص قبل صفحة كما ورد في [حاضر العالم الإسلامي : ١٠٤/١] .

وقال الرَّاهب ميشو في كتابه (رحلة دينيَّة في الشَّرق) :

« ومن المؤسف ألاَّ تقتبس الشُّعوب النَّصرانيَّة من المسلمين التَّسامح الَّذي هو آية الإحسان بين الأُمم واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوَّة » ، [ص : ١٦٢] .

« وكان سلوك الصَّليبيِّين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطَّاب نحو النَّصارى وقتما دخلها منذ بضعة قرون ، قال كاهن مدينة لوري (ريمون داجيل) :

« حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها ، فقد قُطِعَت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقلّ ما يمكن أن يصيبهم ، وبُقِرَت بطون بعضهم فكانوا يضطرُّون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحُرِّق بعضهم في النَّار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يُرَى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يَمُرُّ المرء إلاَّ على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوه » .

وروى ذلك الكاهنُ الحليم ، خبرَ ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر ، فقال :

« لقد أفرط قومنا في سفك الدِّماء » [ص : ٤٠١] .

« ويمكن القول بأنَّ التَّسامح الدِّيني كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب » ، [ص : ٦٨١] .

« لم يفكِّر النَّصارى بعد أن استردُّوا غَرْناطة الَّتي كانت معقل الإسلام الأخير في أوربَّة ، في السَّير على سُنَّة العرب في التَّسامح الَّذي رأوه منهم عدَّة قرون ، بل أخذوا يضطهدون العرب بقسوة عظيمة على الرَّغم من العهود » ، [ص : ٦٩٤] .

« كان يمكن أن تُعْمي فتوحُ العرب الأُولى أبصارهم ، فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ويسيئوا معاملة المغلوبين ، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الَّذي كانوا يرغبون نشره في العالم ، فلو فعلوا ذلك لتألَّبت عليهم جميع الأُمم الَّتي كانت بعد ، غير خاضعة لهم ، ولأصابهم مثلُ ما أصاب الصَّليبيِّين يوم دخلوا بلاد سوريَّة مؤخَّراً ، ولكن العرب اجتنبوا ذلك ، فقد أدرك الخلفاء السَّابقون الَّذين كان عندهم من العبقريَّة ما نَدَر وجوده في دُعاة الدِّيانات الجديدة ، أنَّ النُّظم والأديان ليست ممَّا يُفْرض قسراً ، فعاملوا أهل سوريَّة ومصر وإسبانية ، وكل قطر استولَوْا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة ، في الغالب ، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه فيما مضى ، في مقابل حفظ الأمن بينهم ،

فالحقُّ أنَّ الأُمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم .

وما جَهِلَه المؤرِّخون من رحمة العرب الفاتحين وتسامحهم ، كان من الأسباب السَّريعة في اتِّساع فتوحهم ، وفي سهولة اعتناق كثير من الأُمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم الَّتي رَسَخَت وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتَّى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم » ، [ص : ٧١٩ و ٧٢٠] .

صدق غوستاف لوبون وأنصف حين قال :

« فَالْحَق أن الأُمَم لم تَعْرِف فاتحينَ راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سَمْحاً مثل دينهم » .

يقول سبحانه وتعالى في محكم التَّنزيل :

﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، [المائدة : ٥/٦٩] .

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يؤمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ

إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ ، [آل عمران : ٣/١٩٩] .

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، [البقرة : ٢/٢٥٦] .



عود على بدء

« رمتني بدائها وانسلّت »

العالم المتمدّن مهيّأ للإسلام ديناً ينقذه من ماديّته وفراغه الرُّوحي ، فتشويه صورته من قبل الاستشراق ـ والكنيسة ـ هدف لصرفهم عن الدّين الحقّ ، فتراهم يضعون أمام الإسلام مرآة مقعّرة أو محدَّبة ، فملكة الجمال قُبَالة هذا الوضع تظهر مشوَّهة يُزْهَدُ بها .

إنَّهم يرون خيول الإسلام مسرجة ، فترتعد فرائصهم من فرسانها وهماً وخيالاً ، ففي ظلّ تعاليم الإسلام السَّمحة ، يأخذ الإنسان بيد أخيه الإنسان ، إن كان جائعاً أطعمه ، وإن كان فقيراً أغناه ، وإن كان جاهلاً علَّمه ، وإن كان ضالاً هداه ..

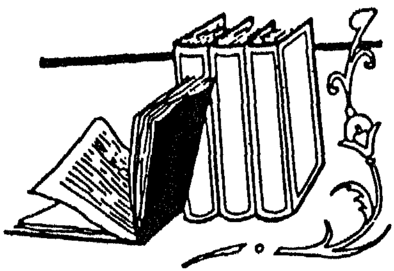
أما قام رسول الله ﷺ لجنازةٍ مرَّت أمامه ، فقيل له : إنَّه غير مسلم ، فقال ﷺ :

« أَوَليس إنساناً ؟ » ، [البخاري في الجنائز : ١٣١٢] ، ويقول ﷺ : « أنا شهيد أنَّ العباد كلَّهم إخوة » ، [رواه ابن حنبل عن

زيد بن أرقم] ، ويتّهم الإسلام بالتّعصّب ، وتوصف أوربّة بالتّسامح ؟ ويفتري فيكتور هوغو على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، و (العهدة العمريّة) كافية لتلقيم هوغو حجراً ، ولكن صدق المثل العربي القائل :

« رمتني بدائها وانسلّت »

إنّهُ (الإسْقَاطُ) أوّلاً وأخيراً



المصادر والمراجع

الأحكام السُّلطانيَّة :

محمد بن الحسين الفرَّاء ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، طبعة سنة ١٩٨٣ م .

اختصار الأخبار عمَّا كان بثغر سبتة من سني الآثار :

محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري السَّبتي ، الرَّباط ١٩٨٣ م .

أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي .

د . صابر طعيمة ، عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٨٤ م .

أسرار الفاتيكان ، قضيَّة ليدل :

ليو بولد ليدل ، ترجمة تحسين حجازي ، دار التَّضامن - بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٩٩٠ م .

الأعلام :

خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطَّبعة السَّادسة ، ١٩٨٤ م ..

الإنسان بين المادِّيَّة والإسلام :

محمد قطب ، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٦٠

تاريخ الإسلام :
د . حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النّهضة المصريّة ، الطّبعة السّادسة ، ١٩٦١ م .
تاريخ أوربّة في العصور الوسطى :
هـ . أ . ل . فيشر ، دار المعارف بمصر ، الطّبعة الثّالثة ، (بلا تاريخ) .
تاريخ الشّعوب الإسلاميّة :
كارل بروكلمان ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطّبعة الرّابعة ، ١٩٦٥ م .
تاريخ الطّبري (تاريخ الرّسل والملوك) :
ابن جرير الطّبري ، دار المعارف بمصر ، (ذخائر العرب) ١٩٦٠ م .
تاريخ العرب العام :
لويس إميلي سيديو ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، الطّبعة الثّانية ، ١٩٦٩ م .
تاريخ اليعقوبي :
أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر ، دار صادر (بلا طبعة أو تاريخ) .

تبدُّد أوهام قسيس الحقيقة العلميَّة فوق الدِّين النَّصراني :
د . فرانز غريس ، مطبعة دار الطِّباعة (الضِّياء) ، بوينس آيرس ، الأرجنتين ، ترجمة عن الإسبانيَّة : خليل سعيد ذو الغنى .

التَّبشير والاستعمار :
د . خالدي ، و د . فرُّوخ ، منشورات المكتبة العصريَّة ، صيدا ـ بيروت ، ١٩٨٦ م .

تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين :
أحمد زين الدين المعبري المليباري ، مؤسَّسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٥ م .

التَّسامح والتَّعصُّب :
محمَّد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٦٥ م .

التَّفسير الحديث :
محمَّد عزَّة دروزة ، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى، ١٩٦٣ م .

حاضر العالم الإسلامي :

لـوثروب ستـودارد ، دار الفكر ـ بيروت ، الطَّبعـة الرَّابعـة ، ١٩٧٣ م .
الحركة الصَّليبيَّة :
د . سعيد عبد الفتَّاح عاشور ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٦٣ م .
حضارة العرب :
غوستاف لوبون ، دار إحيـاء التُّراث العربي ، الطَّبعـة الثَّالثـة ، ١٩٧٩ م .
الْخَرَاج :
أبـو يـوسف يعقـوب بن إبراهيم (القـاضي) ، الطَّبعـة السَّلفيَّـة ومكتبتها ، القاهرة ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٣٩٢ م .
الدَّعوة إلى الإسلام :
تـومـاس آرنـولـد ، مكتبـة النَّهضـة المصريَّـة ، الطَّبعـة الثَّانيـة ، ١٩٥٧ م .
دعوة الحق :
السَّنـة ١٩ ، العـدد الصَّـادر في آب (أُغسطس) ، ١٩٥٨ م ، الرَّباط ، وزارة الأوقاف .
دفاع عن الإسلام :

لوراڤيشيا فاغليري ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٥ م .
السِّيرة النَّبويَّة :
ابن هشام ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٥ م .

شمس العرب تسطع على الغرب :
زيغريد هونكه ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطَّبعة الثَّامنة ، ١٩٨٦ م .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا :
أبو العباس القلقشندي ، المؤسَّسة المصريَّة العامَّة ، (تراثنا) ، بلا طبعة أو تاريخ .

الصِّراع الحضاري :
شايف عكاشة ، دار الفكر بدمشق ، الطَّبعة الأُولى ، ١٩٨٦ م .

علمانيَّة الهند :
شريف المجاهد ، مؤسَّسة الرِّسالة ، ١٩٨٩ م .

صليبيَّة إلى الأبد :
عبد الفتَّاح عبد المقصود ، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .
عيون الأثر :

ابن سيِّد النَّاس ، دار الجيل ، بيروت ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٧٤ م .
الغارة على العالم الإسلامي :
أ. لُوشاتليه ، طبعة المطبعة السَّلفيَّة ومكتبتها ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .
الغزو الثَّقافي يمتد في فراغنا :
محمَّد الغزالي ، دار الشَّرق ، الطَّبعة الأُولى ، مصر ، ١٩٥٩ م .
فتح أمريكا :
غرفيتان تودوروف ، ترجمة بشير السّباعي ، دار سيناء .
فتوح البلدان :
أبو الحسن البلاذري ، المكتبة التِّجاريَّة الكبرى ، مصر ، ١٩٥٧ م .
في طلب التَّوابل :
سونيا ي. هاو ، مشروع ١٠٠٠ كتاب ، رقم ٩٨ . مكتبة النَّهضة ، مصر ومطبعتها ، ١٩٥٧ م .
قذائف الحق :
محمَّد الغزالي ، دار ذات السَّلاسل (الكويت) ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٩٨٠ م .

الكامل في التّاريخ :
ابن الأثير الجزري ، إدارة الطّباعة المنيريّة ، القاهرة ، ١٣٤٨ م .
الكنز المرصود في قواعد التلمود :
ترجمة د . يوسف نصر الله ، دار العلم ، الطّبعة الأولى ، ١٩٨٧ م .
لسان العرب :
محمد بن مكرم منظور ، دار صادر ، بيروت ، (بلا تاريخ أو طبعة) .
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين :
أبو الحسن علي الحسني النّدوي ، مكتبة دار العروبة ، الطّبعة الخامسة ، ١٩٦٤ م .
محاضرات في النّصرانيّة :
محمّد أبو زهرة ، دار الكتاب العربي ، مصر ، الطّبعة الثّالثة ، ١٩٦١ م .
المدخل إلى تاريخ الحضارة :
د . جورج حداد ، مطبعة الجامعة السّوريّة ، ١٩٥٨ م .
مسند الإمام أحمد بن حنبل :
المكتب الإسلامي ، دار صادر ، بيروت (بلا تاريخ) .
مصرع غرْناطة :

شوقي أبو خليل ، دار الفكر بدمشق ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٨١ م .

المظلومون في التَّاريخ :

د . شاكر مصطفى (أوراق من التَّاريخ : ٢) ، منشورات شركة النُّور ـ الكويت .

معجم البلدان :

ياقوت الْحَمَوي ، دار صادر ، بيروت (بلا طبعة أو تاريخ) .

نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب :

أحمد بن محمَّد المقَّري التلمساني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٤٩ م .

وادي المخازن :

د . شوقي أبو خليل ، دار الفكر بدمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .

ودخلت الخيل الأزهر :

جلال الكشك ، الهيئة العامة للكتاب العربي ، الطَّبعة الثَّانية (بدون تاريخ) .

المحتوى

الموضوع	الصفحة

صدر من سلسلة هذا هو الإسلام :

١ ـ مدخل إلى فهم الجذور .

٢ ـ حرية الإنسان في ظل عبوديته لله .

٣ ـ التسامح في الإسلام مبدأً وتطبيقاً .

ترجم من هذه السلسلة إلى الإنكليزية والألمانية :

ـ مدخل إلى فهم الجذور .

ـ حرية الإنسان .

دار الفكر

التسامح في الإسلام

التّسامح سمة الإسلام الخالدة ، فهو لا يحكم بالإعدام على الثّقافات الأُخرى ، والحوار هو البديل ، وإقرار الإسلام بتعدُّد العقائد في مجتمع المسلمين إقرار بمشيئة الله : ﴿ وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لجعَلَ النّاسَ أُمّةً واحِدَةً ولاَ يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود ١١/١١٨] .

بينما نرى الشّرائع الأُولى تتبرّم من الآخرين ، وترسم سياستها الظّاهرة والباطنة لإبادة خصومها ، أو تحقيرهم وحرمانهم .

وسيبقى مبدأ الإسلام الخالد ﴿ لاَ إكْرَاهَ في الدِّينِ ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦] ، حجّة على كلّ متعصّب متزمّت ، لا يؤمن بحرّيّة اختيار العقيدة .